بسم الله الرحمن الرحيم

نوف

رواية

obeikandl.com

نوف: رواية / سعاد الولايتي.- دمشق: دار الفكر ٢٠١٠ .- ١٣٢ ص؛ ٢٠سم.
ISBN: 978-9933-10-154-1
١-٨١٣,٠١ و ل ا ن٢-٨١٣,٠٠٩٥٦٩٣
و ل ا ن ٣- العنوان ٤- الولايتي
مكتبة الأسد

obeikandl.com

سعاد الولايتي

نوف

رواية

obeikandl.com

دار الفكر – دمشق – برامكة
٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١
٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١
http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

نوف

روايـــة

سعاد الولايتي

الرقم الاصطلاحي: ٢٢٤٠,٠٣٦
الرقم الدولي: ISBN:978-9933-10-154-1
التصنيف الموضوعي: ٨١٣ (القصة والرواية والحكاية)
١٣٢ ص، ١٢ × ٢٠ سم
الطبعة الأولى: ١٤٣١هـ= ٢٠١٠م
© جميع الحقوق محفوظة لدار الفكر دمشق

obeikandl.com

المحتوى

قبل أن تقرأ هذه الرواية ٧

مفاجأة ١٣

السفر ٣٥

اللقاء ٣٩

رحيل ٥٩

اليوم الأول ٦١

وجبة كويتية ٦٩

مارتا ٧٧

بيتر ٨٥

حان الفراق ٩٥

طارئ ١٠١

رمضان ١١١

ولادة ١١٧

وداع ١٢٩

الخاتمة ١٣١

obeikandl.com

obeikandl.com

قبل أن تقرأ هذه الرواية

كثيراً ما يسألني الناس بعد قراءتهم لبعض قصصي ورواياتي، أهي حقيقية، أو هي من وحي الخيال! وكثيراً ما أندهش من سر اهتمامهم بهذا الأمر، إذ ما أهمية أن تكون الرواية حقيقية، أو وهمية!

لا شك أن العمل الأدبي فيه جزء من الواقع، بيد أنه لا يستغني عن الخيال في الوقت ذاته، خصوصاً في تفصيلاته، بل إنني أرى أنه لابد من الخيال.. خيالٍ يبتعد بنا قليلاً عن واقعنا، إذ يفترض بالأدب أن يرفه عنا، ويسلينا، ويحلق بنا في عالم جميل نتمنى أن نجده حقيقة في واقعنا.. أدب يملأ نفوسنا بالأمل ويشحنها بالتفاؤل، وإن كان ذلك لا يعني أن يتجاهل سلبيات الواقع فلا يناقشها بتاتاً، ولا يقدم لها حلولاً، لكنه بمجمله أدبٌ نبيلٌ ذو أهداف سامية، وقد أعجبني

ما كتبته بهذا الصدد الروائية الإنجليزية فلورنس براكلي في مقدمة روايتها الرائعة (المسبحة) حيث قالت: «إن هدفي هو: ألا أكتب قدر سطرٍ يمكن أن يدخل شائبة من الخطيئة أو ظلاً من ظلال الخجل إلى أي بيت!.. وألا أرسم أبداً شخصية تنزع إلى الانحدار بالمثل العليا للقراء الذين ارتبطوا عن طريق قلمي ارتباطاً وثيقاً برجل أو امرأة من مخلوقات قصصي.. إن في العالم قدراً وافراً من الخطايا، بحيث لا يحتاج الأمر إلى أن يستخدم المؤلفون قوة خيالهم كي يضيفوا خطايا أخرى وهمية إلى ما في جعبة البشرية منها!.. فأينما أدرت بصرك على ظهر هذا الكون تجد زرافات من الأشخاص الأشرار، والوضيعين، والخبثاء، يدبون على أرضنا.. فلماذا يضيف المؤلفون مزيداً إلى عدد هؤلاء الأشرار، ويخاطرون بتقديمهم إلى بيوت هانئة وادعة، لا تحتمل وجودهم في الحياة الواقعية دقيقة واحدة!؟».

وقديماً قال عالم وكاتب فرنسي عظيم: "إن المسوغ الوحيد للقصص الخيالية، هو أن تكون أبهى جمالاً من الواقع!" "انتهى".

سبق مولد هذه الرواية قصة قصيرة كتبتها منذ سنوات طويلة، أو لنقل إنَّ تلك القصة القصيرة التي كتبتها وأنا في الرابعة عشرة من عمري كانت النواة لهذه الرواية التي بين يديك اليوم، فحين قرأت إعلاناً في مجلة هنا لندن (النسخة العربية) عن مسابقة للقصة القصيرة، أسرعت إلى المشاركة فيها بقصتي تلك وأسميتها (متى يأتي الشتاء)، ومع أنني تلقيت خطاب شكر من إدارة المجلة على مشاركتي، إلا أن قصتي لم تفز بأي من جوائز المسابقة الثلاث، وقد أدركت السبب حين تم نشر القصص الفائزة لاحقاً، فالفارق في المستوى الأدبي واللغوي جلي بين قصتي البسيطة في أسلوبها وموضوعها وبين القصص الفائزة. بعد ذلك نسيت الأمر برمته، ولم أحتفظ حتى بنسخة من قصتي تلك، بل إنني في غمرة مشاغل الحياة؛ من دراسة وزواج وأبناء، نسيت حلمي بتحقيق الأمنية التي كنت أرددها دوماً على مسامع زميلاتي في المدرسة بأن أكون روائية حين أكبر، ولا أدري كيف تذكرت حلمي فجأة بعد إنجابي لطفلي

الخامس، ومن حينها شرعت في تأليف القصص والروايات. لكنني لم أتذكر قصتي الأولى بتاتاً، حتى كان يوم زارني فيه في مقر إدارة الشؤون النسائية بلجنة التعريف بالإسلام في صيف عام ٢٠٠٥م، الأستاذ الفاضل عبد القدوس أبو صالح رئيس رابطة الأدب الإسلامي، وحدثني أثناء الزيارة عن رواية بعنوان (البحث عن الجذور) للكاتبة مؤمنة أبو صالح، ووعد بأن يرسل إلي نسخة منها فور عودته إلى مقر إقامته في الرياض، وإخاله نسي وعده لي لكثرة مشاغله، إلا أنني من جانبي لم أنتظر، وبادرت بالسؤال والبحث عنها حتى أعارتني إياها إحدى الأخوات الفاضلات، ولما قرأتها تذكرت على الفور تلك المحاولة القصصية الأولى لي منذ سنوات، فقد لاحظت تشابهاً بين بطلَي القصتين؛ فكلاهما نصفه عربي ونصفه الآخر أجنبي.

أخذت أسترجع أحداث قصتي القديمة في ذهني، وأضيف إليها وأحذف منها ما يتناسب مع معطيات الواقع الحالي، وما نلته من خبرات

اجتماعية وأدبية على مر الأعوام الماضية، وقد أتاحت لي السنوات التي عشتها في أمريكة سماع كثير من قصص الدعوة الإسلامية ومعايشتها، التي قام بها بعض المسلمين، بين أفراد من المجتمع الأمريكي، والبعض المؤثر جداً من تلك القصص يجعل من الصعب على من عايشها أو سمعها أن ينساها على مر الأعوام.

بعد عدة أشهر اختمرت الرواية بكاملها في ذهني، فشرعت في كتابتها، بالتاريخ المذيل أدناه، إلا أن مشاغلي العديدة حالت دون إتمامي لها قبل نهاية عام ٢٠٠٩م، وها هي ذي الآن عزيزي القارئ بين يديك.

أم المثنى

١٣ جمادى الآخرة ١٤٢٦

٢٠٠٥/٧/١٩

opeikandi.com

obeikandl.com

مفاجأة

حلقت الطائرة الجامبو في السماء عالياً، وراحت نوف تتأمل جناح الطائرة القريب من نافذتها وهو يهتز بفعل ضغط الهواء، ثم سرعان ما استقرت الطائرة، ومضى أفراد طاقمها يقدمون خدماتهم للركاب في حيوية ونشاط. تصفح والدها الجالس بقربها الصحيفة اليومية بآلية، وظلت هي منشغلة عما يدور بداخل الطائرة تتأمل الغيوم الخفيفة التي تجمعت أسفل الطائرة.. تخيلت نفسها تسير عارية القدمين فوق تلك الغيوم، ترى كيف يكون السير فوق الغيوم؟؟

استرجعت بذهنها أحداث الشهر الماضي العجيبة، وما زالت غير مصدقة ما جرى فيه! ألصقت أنفها بزجاج النافذة أكثر، وابتسمت في سخرية حين تذكرت ما اتهمتها به صديقتها شوق منذ شهرين، اتهمتها بأنها تخفي عنها أمراً، ولا تدري من أين جاءها هذا الهاجس، لكنها أقسمت لها بأن ذلك غير صحيح، وما عساها أن تخفي عنها وهي صديقة عمرها، تزاملتا في المرحلة الثانوية، وازدادت تلك الصداقة توثقاً في الجامعة، لكن يبدو أن شوق من أولئك الذين يملكون

ما يسمى بالحاسة السادسة، ولا شك أن حاستها السادسة قوية جداً، فبعد أسبوع واحد فقط من اتهامها ذاك، حدثت تلك المفاجأة الغريبة في حياتها، والذهول الذي اعتراها لما سمعته من أبيها مازال غالباً عليها.. صحيح أنه قد خف نوعاً ما، لكنه ما يزال موجوداً! ذهول يغلفه شيء من الحزن والضيق، تمنت يومها لو أنها ما سمعت من أبيها ما سمعت.. تمنت لو أنه في صبح اليوم التالي يناديها ليخبرها بأن ما أخبرها به في الليلة السابقة كان دعابة.. مجرد مزاح!! لكنه لم يكن مزاحاً، ففي اليوم التالي طلب منها أن تستعد لهذه الرحلة الغريبة.. نعم غريبة.. قال إنها ستلتقي بجديها!!

ما كانت تظن أن لها جدة غير جدتها مريم التي تقيم معهم في نفس المنزل، ربتها الجدة بعد وفاة أمها، وحين بلغت الثالثة من العمر اقترن أبوها بزوجته الثانية نوال، أخبرها أبوها أن أمها ليست كويتية.. من إحدى البلاد العربية. لم تهتم بمعرفة المزيد من التفاصيل، فمنذ أن بدأت تعي لم تر حولها سوى والدها وزوجته نوال وإخوتها من أبيها. كانت علاقتها بنوال زوجة أبيها طيبة، ولا تزال تذكر اليوم الذي أنجبت فيه نوال أختَها سارة، يا لفرحتها حين أخبرها أبوها أنه أصبح لها أخت! صار شغلها الشاغل في تلك الأيام البقاء بجوار الصغيرة، ومساعدة نوال في رعايتها. بعد سارة جاء أخوها بدر، الذي قالت عنه

جدتها إنه يشبه البدر في جماله.. أجل إنه أجمل منها ومن أختها سارة! أخذ من أمه بياض بشرتها، والعينين الواسعتين، وأخذ من الأب تقاطيعه الدقيقة. وبعد بدر أنجبت نوال عبد الله ثم سعود، ولكن وصول الأبناء واحداً تلو الآخر لم يشغل أباها عنها.. ظلت الأثيرة لديه، يغدق عليها الكثير من اهتمامه، أكان يخشى أن تشعر بالإهمال بين أشقائها؟ الحق يقال إنَّ نوال كانت تحسن معاملتها، وتكون كاذبة لو ادعت غير ذلك، لم تشعر قط بما يروونه عن ظلم زوجة الأب!

مضت حياتها هانئة حتى كانت الليلة التي أفضى فيها أبوها لها بالسر العجيب! في الليلة التي سبقتها كانت تجلس في الصالة مع نوال وسارة، فجاء أبوها وجلس بقربها وسألها:

- كيف الدراسة يانوفة؟

ابتسمت وهي تجيب:

- الحمد لله.

تفرس فيها لبرهة وابتسم، لا تدري لم شعرت وكأنه يود أن يبوح لها بشيء، لكنه التزم الصمت بعد تردد، ونوال ترمقه في قلق!!

في الليلة التالية جاء لغرفتها، وجلس على المقعد الأخضر العريض بجوار سريرها، كانت هي متكورة في فراشها، وقد بسطت أمامها أحد كتبها. استغربت

حضوره في تلك الساعة، فعادة ما يكون بالديوانية في مثل ذلك الوقت، أما هو فقد أخذ يتأمل خصلات شعرها الأسود المستلقية على كتفيها، لون بشرتها خليط من لونه الأسمر وبشرة أمها البيضاء، وكانت نتيجة هذا المزج لوناً بديعاً بين السمرة والبياض أضفى عليها لوناً جذاباً نادراً، وزاد من جاذبيتها ذلك الوجه ذو التقاطيع الدقيقة الذي يوحي بالابتسامة حتى لو لم تبتسم. أخذت عن أمها أيضاً قوامها الطويل الممشوق. سألها:

- كيف الدراسة؟

قالت ضاحكة:

- ماذا دهاك يا أبي، كلما رأيتني سألتني كيف الدراسة!

ابتسم وقال:

- ألا يحق لي أن أفرح بك؟ سنة أخرى وتتخرجين في الجامعة.

تركت الكتاب وقالت:

- ربما تخرجت في الربيع، إذا أخذت مواد كافية هذا الصيف.

أطرق إلى الأرض قليلاً، وحك ذَقنَه بارتباك وقال:

- لا يمكنك التسجيل في الفصل الصيفي.

openkanal.com

تساءلت بدهشة:

- لم؟

رفع بصره إليها وأجاب:

- لأننا سنسافر في هذا الصيف.

- سنسافر؟ إلى أين؟

بعد تردد قليل قال:

- إلى أمريكة.

هتفت مدهوشة:

- أمريكة؟ كلنا؟

- لا.. أنا وأنت فقط.

ازدادت حيرتها:

- أنا وأنت فقط! لم؟

دار خاطر سيئ بذهنها، فأسرعت تسأل:

- أأنت مريض يا أبي؟

ضحك وقال:

- كلا.. لست مريضاً.

- أأكون أنا مريضة، وأنا لا أعلم.

هز رأسه نافياً:

obeikandl.com

- من تحدث عن المرض؟

- لماذا نسافر إلى أمريكة إذن؟ أمريكة يسافر إليها الناس للعلاج أو..

قاطعها:

- أو للسياحة.

سألته باهتمام:

- أنسافر لها أنا وأنت للسياحة؟

ألقى ببصره للأرض وأجاب بهدوء:

- بل لزيارة أقارب.

- أقارب؟ أقارب لنا هناك!

هز رأسه مؤكداً:

- نعم.. أقارب لنا هناك.

تربعت على غطاء السرير المزدان بورود خضراء كبيرة، تناسبت مع لون السجادة الأخضر وسألته بنفاد صبر:

- ما الأمر يا أبي؟ ما هذه الألغاز؟

شرد ببصره لحظات ثم نظر إليها وقال:

- ليست ألغازاً. اسمعي يا نوف، سأصارحك بأمر، وأريد منك أن تنصتي جيداً.

obeikandl.com

- أكيد سأنصت جيداً بعد هذه المقدمة العجيبة.

صمت قليلاً، ثم واصل الحديث:

- أنت الآن في العشرين من عمرك، صرت ما شاء الله امرأة، وأنا فخور بك، ولكن.. ولكن هناك أمر صغير أخفيته عنك طوال السنوات الماضية، وأظن أنه قد آن الأوان لتعرفيه، بل من حقك أن تعرفيه.

تسارعت دقات قلبها.. ماذا عساه يقول لها؟

تابع الأب:

- طالما أخبرتك أن أمك ليست كويتية.. من إحدى البلاد العربية، ولكن الحقيقة أنها ليست كذلك.

انحنى قليلاً إلى الأمام وتهدج صوته وهو يقول:

- كانت لدي أسباب تدعوني لإخفاء الأمر عنك، ربما صارحتك بها مستقبلاً، ولكن الذي يجب عليَّ إخبارك به الآن أن أمك.. أمك أمريكية!!

حدّقت فيه مدهوشة، غير مصدقة لما سمعت وهتفت:

- أنا؟ أمي أمريكية؟ أتمزح يا أبي؟

هز رأسه في ضيق وقال:

- ليس الوقت وقت مزاح، إنها الحقيقة التي أخفيتها عنك لسنوات، وكانت لدي أسبابي.. أسبابٌ قوية.. صدقيني، وأمرت الجميع أن يخفوها عنك.. جدتك، عماتك، وأعمامك.. الجميع.

obeikandl.com

صمت هو، وبقيت هي تسترجع عبارته الأخيرة، لم تجد ما تقوله، عقدت المفاجأة لسانها!

تذكرت شوق.. لقد صدق حدسها.. تبين بالفعل أن لديها ما تخفيه عنها، لكنها هي لم تكن تعلمه! ياله من خبر!

عادت تتأمل أباها، كان سارحاً بأفكاره، باح لها بالسر الذي ظل يقلقه سنوات واستراح، أي ليلة هذه! بيد أن الفضول الذي بداخلها كان أقوى من ذهولها، ولذلك راحت تستحثه قائلة:

- أكمل يا أبي.

انتبه من شروده وقال:

- ما كان بمقدوري إخفاء الأمر عنك كل العمر، فضلاً عن أنه ليس من حقي، وقد انقطعت صلتي بأمك بعد أن طلقتها وأنت طفلة في الثانية من العمر، وبعد سنوات علمت بوفاتها إثر مرض عضال، ولم تعد لي أي علاقة بأهلها، حتى.. حتى اتصل والدها بي منذ مدة، قال إنه وجدَّتك يرغبان برؤية حفيدتهما! لماذا؟ وكيف تذكراك بعد كل تلك السنوات؟ هذا ما سألته، فقال كلاماً كثيراً خلاصته أنهما يتشوقان لرؤيتك والتعرف عليك! هكذا قال.

صمت الأب من جديد، وراحت هي تفكر، لها جد وجدة أمريكيان! يا للعجب!! أم أمريكية، وجدان

أمريكيان وربما كان لها أخوال وخالات أيضاً! أجادٌ أبوها فيما ذكره أم أنه يمزح! لكنه لا يبدو مازحاً، بل يبدو متعباً مثقلاً!! أسندت ظهرها للسرير وهي منزعجة.. ما هذا الذي سمعته؟ لكن علام انزعاجها؟ ألا يفترض أنه كان لها أقارب من جنسية أمها العربية المزعومة! كل ما في الأمر أن جنسية أولئك الأقارب قد تبدلت! انتبهت لأبيها يقوم من كرسيه ويجلس على السرير أمامها ويقول:

- وبعد محادثات طويلة معهما، وإلحاح شديد منهما وافقتُ.. وافقتُ على أن تسافري إليهما، وتتعرفي عليهما.

ازداد الانزعاج بداخلها وقالت في هلع:

- أسافر إليهما؟

ربت على كتفها وقال:

- لا تخشي شيئاً، إنهما لطيفان جداً.. سترين بنفسك.

- أبي.. أنا.. أنا.

قاطعها بحنان:

- أعلم.. أعلم تماماً ما تشعرين به، أنت مذهولة الآن مما سمعت، لكن الذهول مرحلة وقتية وستنتهي.. ستنتهي حتماً!!

هزت رأسها في حيرة وبقيت صامتة، لا تدري بم تجيبه، وأدرك هو ما يعتمل في صدرها فقال:

- اسمعي.. يكفي ما تحدثنا به الليلة.. نامي الآن والصباح رباح.

- أنام؟ أتظنني سأنام بعد هذا الحديث؟

ابتسم لها مواسياً، وكأن لسان حاله يقول: أنا أيضاً منفعل مثلك!!

نهض واقفاً ومضى نحو الباب، وقبل أن يخرج استوقفته:

- أبي.. ما كان اسم أمي؟

- كلير.

- كلير؟

تردد قبل أن يضيف:

- لم تكن مسلمة!! رفضت اعتناق الإسلام!

وهذه أيضاً لطمة جديدة!!

وضع يده على مقبض الباب، والتفت إليها مبتسماً، وكأنه يشفق عليها من كل ما صارحها به:

- حاولي أن تنامي.

- أتظنني أستطيع النوم بعد كل ما قلته؟

رفع بصره إلى السقف ثم هز رأسه موافقاً:

obeikandl.com

- أجل.. لا أظنك تنامين!!

بعد خروجه ظلت جالسة نفس جلستها، استرجعت حديثه معها كلمة كلمة، لا تدري لم شعرت بإعياء وضيق، استلقت في فراشها، وعادت تسترجع ما سمعته، كل هذه السنين وهي لا تعلم.. قال إن لديه أسبابه، وربما أطلعها عليها يوماً.. ستسافر لتلقى جديها.. فجأة صار لديها جد وجدة أمريكيان.. أتضحك أم تبكي؟؟.

تقلبت في فراشها ثم نهضت وسارت إلى النافذة، ألقت نظرة نحو الشارع، ثم عادت وجلست في المقعد الأخضر، الأفكار تتصارع في رأسها وهي متعبة.. متعبة. عادت تستلقي في فراشها وتتقلب، وأخيراً.. أخيراً نامت.

دل الإسفار الخفيف الذي لاح من خلف الستارة المسدلة في غرفة نوم (نوف) على بداية يوم جديد.

دخلت (نوال) لتوقظها برفق وتقول بحنان:

- هيا استيقظي يا نوف، فقد أذن الفجر منذ أكثر من ساعة.. كفاك نوماً!!

فتحت (نوف) عينيها اللتين بدا فيهما الإجهاد واضحاً، وتقلبت في فراشها باتجاه زوجة أبيها، وقالت بصوت واهن:

- وهل قدرت أن أنام؟

ربتت نوال على كتفها وقالت:

- أعلم.. لا شك أنك قضيت ليلة صعبة!

اعتدلت نوف في فراشها وسألت:

- أكنت تعلمين؟

جلست نوال بقامتها الطويلة وجسدها الضخم على حافة الفراش، كانت ترتدي ثوباً من القطن الناعم الذي ساعد في إبراز بدانتها، ولكنها في مقابل هذه السلبية كانت تملك وجهاً وضاءً وبشرة ناصعة البياض.

قالت لها:

- طبعاً.. لكن كان علي أن أطيع أباك وأحترم رغبته.. هيا انهضي لتدركي الصلاة قبل شروق الشمس.

بعد أن صلت استلقت في فراشها، واسترجعت من جديد حديث البارحة، قالت لنوال إنها لن تذهب إلى الكلية، أرادت أن تخلو بنفسها مع أفكارها، وقبيل صلاة الظهر نزلت إلى غرفة الجدة التي تقع في الدور الأرضي، من منزلهم الكبير الواسع الذي يتكون من طابقين فسيحين وقد اشتمل على ملحق للخدم.

كانت الجدة جالسة على سريرها كعادتها دائماً كلما دخل عليها أحد غرفتها، وقد وضع السرير في مقابل الباب، وفرشت الأرضية بسجادة متعددة الألوان

والزخارف، وحوت الغرفة دولاباً من الطراز القديم أصرت الجدة على جلبه معها من منزلهم القديم في الرميثية، حين عزموا على الانتقال إلى منزلهم الجديد في جنوب السرة. تميز أثاث الغرفة ببساطة واضحة للعيان، وكأن الجدة رامت من خلال هذا الأثاث البسيط أن تعيش أجواء الماضي الذي تحن إليه وتعتز به. امرأة نحيلة ضئيلة الحجم تجاوزت السبعين، تنم عروق كفيها النافرة عن حياة قاسية عاشتها في الماضي، لكن الوجه النحيل ذا التقاطيع الدقيقة حمل طيبة متناهية تشيع في نفس الناظر إليه راحة عجيبة.

ما إن رأت الجدة (نوف) مقبلة حتى فتحت لها ذراعيها، ولاذت الأخيرة بالحضن الدافئ، فيما راحت الجدة تمطرها بقبلاتها وهي تقول:

- كنت بانتظارك، أعلمني أبوك أنه أخبرك عن أمك وعن السفر.

- لا أريد السفر.

تساءلت الجدة مشفقة:

- هل أنت خائفة؟

اعتدلت نوف في جلستها على السرير في مواجهة الجدة،وقالت متذمرة:

- لا أريد السفر، لماذا يتحتم علي أن أذهب لأقيم مع ناس غرباء لا أعرفهم.

ربتت الجدة بكفها المعروقة، على كتف (نوف) وقالت مشجعة:

- ستتعرفينهم، وتألفينهم.. لا تقلقي! ثم إن إقامتك لن تطول.. شهر واحد فقط!!

أطرقت (نوف) إلى الأرض ساهمة، وبعد لحظات رفعت بصرها نحو جدتها وقالت برجاء:

- أمي.. حدثيني عن.. عن أمي!

ابتسمت الجدة في حنان، ومن جديد طبعت قبلة على خد الحفيدة، وهي تتأمل وجهها الجميل، وملامحها الدقيقة ثم قالت:

- أنت أجمل منها بكثير!

سألت نوف:

- حقاً؟؟

هزت الجدة رأسها الصغير وأردفت:

- عندما أحضرها أبوك إلى منزلنا أول مرة، راعني طولها المفرط! صحيح أنها كانت شقراء، لكنها لم تكن على قدر كبير من الجمال، بل إن جدك - رحمه الله - ظل يتفرس فيها طويلاً ثم سأل أباك:

- أكانت سافرة الوجه حين تزوجتها؟ أم كانت ترتدي برقعاً مثل أمك؟

فرد أبوك:

- طبعاً يا أبي، كانت سافرة الوجه.

فقال له جدك ساخراً:

- إذن، لم لم تختر أخرى أجمل منها!

لم يكن جدك راضياً عن هذه الزيجة، لكنه قبل بالأمر الواقع. ذهب أبوك ليدرس في أمريكة، وحين عاد كانت الشهادة بيده اليمنى، وأمك بيده الأخرى.

تساءلت نوف باهتمام:

- وهل كانت زيجة موفقة؟

هزت الجدة رأسها بالإيجاب وهي تعدل من وضع الخمار على شعرها الأشيب:

- مدة قصيرة، لم تطل العشرة بينهما، لم تستطع أن تتلاءم مع عادات مجتمعنا وتقاليده. كانت قوية شديدة البأس، تريد أن يكون أمرها بيدها، ولم يكن أبوك بالرجل الذي يرضى أن يكون مجرد تابع لها، فتم الطلاق بعد ولادتك بأشهر قليلة.

ضغطت نوف على شفتيها وتساءلت بعد تردد:

- هل.. هل حرصت على رؤيتي بعد الطلاق؟

هزت الجدة رأسها الصغير نافية وقالت:

- مطلقاً! سافرت إلى بلدها ومن هناك طلبت الطلاق، ربما اتصلت بأبيك مرة أو مرتين لتسأل عنك،

obeikandl.com

ثم انقطعت عنا أخبارها، حتى جاءنا خبر وفاتها بعد سنوات.. أظن أنك كنت في العاشرة من العمر وقتها.

مرت لحظة صمت قبل أن تسأل نوف مجدداً:

- لكن.. لكن لمَ أخفى أبي الأمر عني؟

مسحت الجدة بكفها على وجه حفيدتها وقالت بحنان:

- خاف عليك يا بنتي!

- خاف؟ ممَّ؟

- منها!! زوجة صاحبه الأمريكية أخذت طفلها، وهربت به إلى بلادها، ولم يره أبوه منذ ذلك الحين! خاف أن تفعل أمك مثلها.. خاف أن تشبي بعيداً عنه، وتنقطع علاقتك بأهلك ووطنك، ودينك.

ساورها شعور بالسرور لحرص أبيها عليها، لكنها عادت تسأل:

- ولكن لم لم يخبرني عنها بعد وفاتها، مادام لا يخشى شيئاً؟

هزت الجدة رأسها وقالت:

- لا أدري يا بنتي، قال إنه سيخبرك في الوقت المناسب، وألزمنا جميعاً باحترام رغبته.

ربتت على كتفها من جديد وقالت مشجعة:

obeikandl.com

- لا تقلقي.. ستكون رحلة سياحية! ألم تخبريني في الصيف الماضي أنك تتمنين زيارة أمريكة مثل صديقتك شوق.

ارتسمت ابتسامة ساخرة على وجه نوف وقالت:

- بلى، ولكن الأمر الآن مختلف.. مختلف تماماً.

☆ ☆ ☆

كانت أول عبارة قالتها نوف لشوق حين التقت بها في الكلية في اليوم التالي هي:

- أنت سيدة[١]!!

عقدت شوق ما بين حاجبيها الدقيقين وتساءلت بصوتها الناعم:

- ماذا تعنين؟ ولماذا لم تردي على اتصالاتي بالأمس؟

جلست (نوف) إلى جانب صديقتها التي ضمت عباءتها إليها لتفسح مكاناً لصاحبتها بقربها، وانتظرت منها جواباً عن سؤالها، لكن (نوف) ظلت صامتة، فصاحت شوق:

- هيه.. مالك؟

كانتا تجلسان على مقعد خشبي في الممر الضيق

(١) سَيْدَة بالعامية تعني ولية من أولياء الله.

المحاذي للمكتبة في الدور الأرضي، فهو مكانهما المفضل، وحين ترغب أي طالبة في الكلية بالبحث عنهما لا تتعب كثيراً، فالكل يعلم أن هذا المقعد كأنما وضع في هذا المكان لهما فقط، وحتى حين تسيران معاً في أروقة الكلية ليس من العسير تعرفهما عن بعد، فالتباين الواضح بين طول نوف وقصر قامة شوق الممتلئة نوعاً ما، علامة مميزة لهذا الثنائي.

كررت شوق سؤالها بقلق:

- مالك؟ ما الذي حدث؟ أجيبي عن سؤالي!

قالت نوف دون أن تلتفت إليها:

- أي سؤال؟

- لم لم تردي على مكالماتي بالأمس؟ والله لقد قلقت عليك، حتى إنني فكرت في استعارة سيارة أمي، والحضور إلى منزلك.

ابتسمت لها نوف مقدرة اهتمامها وقالت بتراخٍ:

- لم أرد على أي مكالمات بالأمس!

تساءلت شوق باهتمام وفضول في آن واحد:

- لم؟

أطلقت نوف ضحكة قصيرة والتفتت إلى صاحبتها قائلة:

obeikandl.com

- ألم أقل لك إنك سيدة!

تململت شوق في جلستها وهتفت بضيق:

- أوه.. ما هذه الأحاجي؟ تكلمي!

اعتدلت نوف في جلستها وقالت:

- أتذكرين اتهامك لي منذ مدة بأنني أخفي عنك أمراً.. لقد صدق حدسك!

حملقت شوق بها وتساءلت:

- ماذا تعنين؟

راحت تقص على صاحبتها كل ما دار بينها وبين أبيها، وجدتها، وما انتابها من مشاعر وأحاسيس. كانت وهي تتحدث تشعر أنها تجري وتجري لتخرج كل ما في جعبتها.. تجري لتصل إلى النهاية وتستريح! وهو ما حدث بالفعل؛ فما إن انتهت من حديثها حتى شعرت براحة عجيبة، كأن شيئاً كان يجثم على صدرها، وحين أفرغته ارتاحت.

تملك شوق الحيرة والدهشة فلم تحر ماذا تقول، فاستحثتها نوف قائلة:

- هيا تكلمي. أليس لديك ما تقولينه؟

رفعت شوق رأسها الصغير إليها، وتساءلت:

- ولماذا أنت حزينة؟

obeikandl.com

هزت نوف رأسها وقالت بحيرة:

- لا أدري! ربما لأنني لا أحب المفاجآت، ربما لأنني كنت أتمنى منذ صغري لو كانت أمي كويتية مثل سائر إخوتي، فحين كنا نتشاجر ونحن صغار، كانوا يعيرونني بأن أمي ليست كويتية، والآن.. والآن..

صمتت نوف، وأكملت شوق:

- والآن تعقد الأمر أكثر.

هزت نوف رأسها إيجاباً.

- هو ذاك.

ابتسمت شوق ابتسامتها الحلوة، التي تحبها نوف كثيراً وقالت:

- الخيرة فيما يختاره الله. لا تدرين لعل الله تعالى اختار لك من وراء هذه المفاجأة خيراً كثيراً.

أردفت نوف بخجل:

- أعترف أنني خائفة!

ازدادت ابتسامة شوق اتساعاً وقالت:

- أمر طبيعي.. طبيعي أن تخافي من ملاقاة أغراب، والاضطرار للعيش معهم لمدة من الوقت، على أنها ستكون مدة قصيرة.. ألم يقل أبوك إنها ستكونُ لمدة شهر واحد فقط.

obeikandl.com

- لا أظنني سأحتمل أسبوعاً واحداً.. ليتك تكونين معي!

ضحكت شوق وقالت:

- بل حلاوة التجربة في أن تجتازيها بمفردك، ثم تعودي لتحكي لي عنها.

تساءلت نوف بقلق:

- وماذا عن اللغة؟ لست ممتازة في اللغة الإنجليزية كما تعلمين!

طمأنتها شوق:

- ولست سيئة كذلك.. اطمئني.. لا تقلقي.. اسمعي لدي جهاز قاموس ناطق سأعيرك إياه.. ثم إننا سنظل على اتصال، أليس كذلك؟

قالت نوف بحرارة:

- يومياً.. أرجوك.. لا تتركيني.

ربتت شوق على كتفها مشجعة وقالت بإخلاص:

- بالتأكيد لن أتركك.. اسمعي.. لدي شعور بأنك ستعودين من هذه الرحلة وأنت في غاية السعادة.

- ياليت.

هزت شوق سبابتها في وجه صديقتها وقالت:

- عليك أن تثقي بحدسي، ألم تقولي إني سيدة!!

obeikandl.com

لم تتمكن (نوف) من النوم بتاتاً خلال الرحلة الطويلة المرهقة، فبعد ست ساعات من الطيران هبطت الطائرة في (لندن) لفترة قصيرة، ثم واصلت رحلتها إلى مدينة نيويورك، أنصتت لقائد الطائرة وهو يعلن أن الرحلة ستستغرق سبع ساعات، وما لبث أن غط أغلب المسافرين بالنوم بما في ذلك والدها، في حين حاولت أن تقطع الوقت بقراءة المجلات التي زودتها بها شوق، ومع أنها تمهلت في تصفحها، إلا أنها أتت عليها جميعاً خلال أربع ساعات، ومازال الوقت الباقي للوصول طويلاً لا تدري كيف تقطعه.

أغمضت عينيها وراحت تسترجع في ذهنها أحداث الشهر الماضي، حاولت أن تتخيل ما سيكون عليه الحال في بيت جدها.. كيف سيكون اللقاء، وكيف ستشعر تجاههم.

قامت تتمشى قليلاً بين ممرات الطائرة، وقفت بجوار نافذة في الخلف تتأمل الفضاء وزرقة السماء.. لا شيء يمتد أمام بصرها سوى الفضاء.. الفضاء الرحب.

شعرت بالقلق يعتمل في نفسها من جديد، لكنها لم تشأ الاستسلام لتلك المشاعر السلبية، كفاها ما عانته في الأيام الفائتة.. ذكرت نفسها أن هذه مشيئة الله تعالى والخيرة فيما يختاره الله.

☆ ☆ ☆

السفر

عادت إلى كرسيها بعد حين، وحاولت أن تتشاغل بسماع آيات من القرآن عبر سماعة الأذن. شعرت بأبيها يتململ في جلسته، وما لبث أن فتح عينيه، رآها تنظر إليه فاعتدل في جلسته، وتذمر قائلاً:

- لا أدري لم يصرون على جعل مقاعد الطائرة ضيقة وغير مريحة بتاتاً!!

تشجعت نوف وسألته:

- أبي.. أليس لديك ما تقوله لي؟

دفع عن جسده اللحاف القطني الأزرق الذي زودته به المضيفة وقال:

- وهل بقي ما أقوله لك؟ لقد أجبت عن كل أسئلتك!

- والسبب الذي دعاك لإخفاء الأمر عني، قلت إنك ستحدثني بذلك يوماً.

ربت بكفه الضخمة السمراء على يدها النحيلة وقال:

obeikandl.com

- أعدك بذلك بعد هذه الرحلة.

احتجت قائلة:

- ولم لا يكون الآن؟

- اصبري.. الصبر زين.

أراد أن يغير دفة الحديث فقال لها: ستصل الطائرة إلى مطار نيويورك بعد ساعة من الآن حيث نقضي ليلتنا هناك، وفي صباح الغد نأخذ طائرة داخلية إلى ولاية (فيرمونت) مسقط رأس والدتك. قال جدك إنه سيكون في استقبالنا في المطار مع جدتك.

اعتمل القلق بنفسها من جديد وعادت تسأل:

- ولم يتحتم أن تتركني معهم بمفردي؟ لم لا تبقى معنا؟

زفر الأب متسلحاً بشحنة جديدة من الصبر وأجاب:

- سألتني هذا السؤال ألف مرة، وأجبتك عنه مليون مرة!!

أولاً: هم أهلك وليسوا بأهلي.

ثانياً: الدعوة للإقامة معهم وجهت لك فقط، ولا يعقل أن أفرض نفسي عليهم.

ثالثاً: وجودي معك سيؤدي إلى شيء من التحفظ بينك وبينهم.. الاحتكاك المباشر بينك وبينهم سيوثق أواصر المعرفة بينكم.

رابعاً: لي أصدقاء في أمريكة لم أرهم منذ سنوات، وأود زيارتهم.

خامساً: أ..

قاطعته في ضجر:

- كفى يا أبي أرجوك.. كفى!

- ألست أنت التي طلبت الإجابة عن تساؤلاتك؟

غلبها الانفعال فسكتت، ومن جديد عاد الأب يطمئنها:

- نوفا.. الأمر لا يستحق كل هذا التوتر.. صدقيني.. أنا متأكد أنك ستسعدين بالإقامة معهم وستألفينهم فهم في غاية اللطف.. ستكون تجربة ممتعة، ومتعتها تقوم بالأساس على كونك تخوضينها بمفردك.

حملقت فيه بدهشة وهتفت:

- غريب!

تساءل وهو يبتسم:

- وما هو الغريب؟

- إنه نفس كلام شوق، يبدو أنكما اتفقتما على ذلك!

قهقه ضاحكاً وقال:

obeikandi.com

- بل هي الحقيقة التي ستجربينها بنفسك.. هيا دعي عنك القلق وهذه الأفكار التي ستفسد عليك استمتاعك بالرحلة، ولكني لا ألومك فقد ورثت عني هذا الطبع القلق، لست كأمك.. كان كل همها أن تستمتع بحياتها.

صمت عند ذلك الحد، وكأنه وجد نفسه قد أسرف في الحديث، وصمتت بدورها فقد كان من النادر أن يتحدث والدها عن أمها، إنه شديد التحفظ فيما يتعلق بالحديث عنها، أو لعله كان يرى زواجه منها صفحة طويت للأبد، ومع ذلك تشجعت وسألته:

- أكانت كذلك حقاً؟ حدثني عنها يا أبي.

تشاغل بتصفح الجريدة بلا اهتمام وقال:

- لا شك أن جديك سيحدثانك عنها كثيراً، هيا.. دعينا نستعد، فقد أوشكت الطائرة على الهبوط.

☆ ☆ ☆

obeikandl.com

اللقاء

كان مطار نيويورك ضخماً ومزدحماً جداً.. نساء ورجال من كل لون وجنسية، ولغات مختلفة تدور حولها، ولذلك كانت سعادتها بالغة، حين غادرت المكان، وحين بلغا فندق رمادا، ودلفا إلى الغرفة الصغيرة التي حجزها أبوها لهما.

بعد أن صلت العشاء أسرعت تفتح جهاز الكمبيوتر المحمول وتتحدث إلى جدتها ونوال وإخوتها، ولكن الحديث الأطول كان مع شوق مما دفع الأب لتنبيهها قائلاً:

- دعي شيئاً من التفاصيل لاحقاً، لم تكد رحلتك تبدأ بعد!

ظنت أنها قد استغرقت في النوم ساعات طوالاً، لكنها فوجئت حين وجدت أن الوقت يقارب الثالثة فجراً! شاهدت أباها يجلس على الكنبة الجلدية التي وضعت بجوار طاولة مستديرة قرب النافذة. واضح أنه قد استيقظ قبلها بمدة، فسألته:

- ألم يطلع النهار بعد؟

- ما زلنا في منتصف الليل؟

تمطت وهي تعتدل جالسة:

- ظننت أنني قد نمت كثيراً.

أمسك والدها بجهاز التحكم (الريموت) الخاص بالتلفاز وراح يتنقل به بين المحطات المختلفة، وبعد قليل التفت إليها قائلاً:

- استيقظت باكراً بسبب اختلاف الوقت. نحن الآن في النصف الآخر من الكرة الأرضية، ستظلين عدة أيام تستيقظين بتوقيت الكويت، لا بتوقيت أمريكة، ثم تعتادين على توقيت أمريكة تدريجياً.

- نعم.. أخبرتني شوق بذلك، كم بقي من الوقت لصلاة الفجر؟

- ساعة ونصف.

تأوهت:

- ياه.. ماذا سنفعل خلال هذا الوقت؟

قال الأب وهو يركز بصره على الشاشة:

- هذا عيب السفر إلى أمريكة.. رحلة طويلة ومملة!!

هزت رأسها موافقة:

- نعم.. حمداً لله أنني أحضرت معي جهاز الكمبيوتر.

obeikandl.com

هز الأب رأسه ساهماً فسألته:

- مالك يا أبي؟

- لا شيء.. مرهق من الرحلة الطويلة.

- هل تشعر بقلق؟؟

- أبداً.. أبداً.. ولماذا أقلق؟ لا شيء يستوجب القلق.. لاشيء.

استغرقت الرحلة من مطار (لوجارديا) إلى مطار (بيرلنجتون) في ولاية (فيرمونت) ساعة واحدة.

شعرت بشيء من الانشراح في الصباح، وزال عنها قدر ليس بقليل من قلق وتوتر الأيام الماضية، لاحظت السكون والهدوء اللذين كانا سمة غالبة على ركاب الطائرة، على عكس ما كان عليه الحال في الطائرة الكويتية التي أقلتهم إلى نيويورك حيث الصخب والضجيج، فقد كان بجوارها مجموعة من الأطفال لم يكفوا عن الصراخ والعبث طوال الرحلة، أما هنا فالهدوء شديد حتى إنها اضطرت للهمس وهي تحدث والدها، وكأنها تخجل أن تكون المصدر الوحيد للإزعاج على متن الطائرة.

عندما غادروا الطائرة، لاحظت أن مطار (بيرلنجتون) صغير وهادئ على عكس مطار (نيويورك) تماماً. دفع والدها العربة المحملة بالحقائب تجاه الباب، ثم ما لبث أن هتف:

- انظري.. ها هو ذا جدك هناك.

خفق قلبها بقوة، والتفتت إلى حيث أشار.. تفحصت الرجل الذي كان يتقدم باتجاههما، كان قد تجاوز السبعين، لكنه يتمتع بحيوية ونشاط دلت عليهما رشاقة خطواته وسرعتها، ويتمتع أيضاً بقامة طويلة ضخمة ومنكبين عريضين، وشعر أشقر خفيف على جانبي الرأس، أما العينان ففي زرقة البحر، ورغم خلو تقاطيع الوجه من الملاحة بشكل عام إلا أنها كانت توحي بالطيبة الشديدة. إنه لا يختلف كثيراً عن صورة الرجل الغربي التي تراها في التلفاز وعلى صفحات المجلات.

سرعان ما انتبهت للمرأة التي تحاول اللحاق بخطواته الواسعة، امرأة متوسطة القامة وممتلئة قليلاً بشعر كستنائي قصير لا يكاد يغطي عنقها، وعينين عسليتين فوق أنف صغير، وفم باسم دقيق.

كانت جدتها ترتدي بلوزة قطنية بيضاء وبنطلوناً من الجينز، ورغماً عنها ابتسمت في سخرية وهي تعقد مقارنة سريعة في ذهنها بين جدتيها.. فجدتها سارة صورة نموذجية لعجوز كويتية بثوبها وجديلتيها وخمارها الأسود الذي يحيط برأسها دائماً، وهنا نموذج فعلي لجدة أمريكية.. أمريكية بحتة!!

عانق الجد أباها في حرارة وهو يتمتم بالإنجليزية:

- أهلاً.. أهلاً يوسف.

التفت إليها وابتسامة واسعة على شفتيه وسأل:

- وهل هذه هي حفيدتنا العزيزة؟

أجاب الأب مبتسماً:

- نعم.. هذه نوف.

كانت طوال الرحلة تتساءل في نفسها هل تكتفي بمصافحتهما حين تلقاهما، أو تحضنهما كما تفعل مع جدتها سارة، لكن الجد لم يتركها لحيرتها طويلاً إذ سرعان ما حسم الأمر بأن أخذها في أحضانه وسط ذهولها، وعندما أفلتها من بين ذراعيه التفت يقول لجدتها:

- انظري ياجين.. ها قد رأيناها أخيراً!!

تلقفتها الجدة في أحضانها وهي تهمس:

- شكراً لله.. شكراً لله.. ها قد التقينا بك أخيراً.

أرسلتها من جديد لتتأمل ملامحها، ثم عادت تضمها إلى صدرها بحنان، واستسلمت لها نوف التي كان الارتباك قد سيطر عليها تماماً.

عادت الجدة تتأملها وتسأل الجد:

- أليست جميلة يا مايكل؟

أجاب الجد وهو يقف بينهما ويلف ذراعه حول نوف:

- بلى.. إنها جميلة.. جميلة جداً.

قالت الجدة متأثرة:

- رباه.. إن لها عيني كلير، انظر مايكل!

هز الجد رأسه مؤيداً كلامها:

- فعلاً.. لها عينا أمها.

حاولت أن تقول شيئاً.. أي شيء لكن الكلمات هربت منها، ومع أن الجو كان معتدلاً إلا أنها شعرت بسخونة وجنتيها، فأطرقت إلى الأرض حياءً.

سألتها الجدة في حنان:

- أخبرني أبوك أنك تتحدثين الإنجليزية، أليس كذلك؟

هزت رأسها في صمت، وحاولت من جديد أن تسلك حنجرتها وتتفوه بأي كلمة، لكن صوتها خانها من جديد، ولم تملك إلا أن تهز رأسها مرة أخرى.

هتف الجد:

- سيارتنا قريبة من هنا.. هيا بنا.

في الطريق إلى البيت كان الحديث يدور بانشراح وسعادة بين والدها وجديها، أما هي فقد انزوت في ركن السيارة تتأملهم، وتحاول متابعة حديثهم، وكلما التفتت الجدة إليها مبتسمة بادلتها الابتسامة بدورها، وبذل والدها محاولات عدة ليجعلها تشارك في

obeikandl.com

الحديث، لكنها لم تتمكن من التغلب على حيائها وارتباكها، ولذلك اكتفت بالإنصات لهم حيناً، وحيناً آخر في تأمل شوارع المدينة.

راحت تتأمل المنازل الخشبية الصغيرة التي يمرون بها، وسرعان ما أوقف جدها السيارة أمام منزل من طابق واحد وأمامه حديقة صغيرة منسقة. فتح جدها مرآب المنزل بجهاز التحكم (الريموت) ودلف بالسيارة إلى الداخل. كان مرآباً واسعاً يتسع لسيارتين، وكانت هناك سيارة أخرى صغيرة خمنت (نوف) أنها سيارة الجدة.

ساعد أبوها الجد في إنزال الحقائب، وأمسكت الجدة بكفها وجذبتها باتجاه البيت قائلة:

- تعالي يا عزيزتي.. تعالي يا نوف.. اسمك جميل، وأجمل ما فيه أنه يسهل عليّ النطق به.

سارت برفقة جدتها فوق قطع من الحجارة الكبيرة صفت من طرف الحديقة حتى الباب الرئيسي. فتحت الجدة الباب ودلفت معها إلى غرفة الاستقبال التي قابلتهما مباشرة.. غرفة متوسطة الحجم، لكن أثاثها نم على ذوق رفيع وتناسق بالألوان بديع. على اليمين مباشرة امتد رواق طويل وعلى يمينه ويساره أربع غرف. أشارت الجدة إلى آخر غرفة على اليمين وقالت: هذه غرفتك.

كانت غرفة جميلة بحق، فقد زينت جدرانها بورق أبيض موشى بأزهار خضراء صغيرة، وفرشت الأرضية بسجادة خضراء داكنة اللون، أما الستائر فقد حوت خطوطاً دقيقة من اللونين الأبيض والأخضر، وانزوى السرير الصغير في الجانب الأيسر من الغرفة، وعلى اليمين دولاب خشبي متوسط الحجم، وإلى جواره منضدة الزينة تعلوها مرآة كبيرة، وأمامها كرسي من الخيزران الأبيض.

سألتها الجدة باهتمام:

- ما رأيك بغرفتك؟

أخيراً تمكنت من النطق فقالت:

- جميلة.. شكراً.

عادتا معاً إلى غرفة الاستقبال، وما إن رأى الجد حفيدته حتى لوح لها مبتسماً وأشار إلى مقعد بجواره:

- تعالي يا عزيزتي واجلسي بجواري.

جلست إلى جواره مطرقة، فسأل الجد:

- هل أعجبتك غرفتك؟

ابتسم والدها مشجعاً وقال بالإنجليزية:

- أجيبي عن سؤال جدك.

جاهدت من جديد لتنطق بكلمتين فقط:

obeikandl.com

- نعم.. شكراً.

تفرس فيها الجد مبتسماً، مما زاد من ارتباكها، وشعرت الجدة بذلك فنهضت قائلة:

- سأحضر لكم طعام الغداء، أرجو أن تعجبكم الأطباق التي أعددتها لكم.

كان المطبخ يطل على غرفة الاستقبال على عادة البيوت الأمريكية، ويتصل بالمطبخ من الجهة الأخرى غرفة صغيرة للطعام، حوت مائدة مستديرة بستة كراسيّ.

التفت أبوها إليها وقال:

- ما رأيك لو ساعدت جدتك؟

اعترض الجد قائلاً:

- بل دعها تجلس معنا، كل شيء جاهز ومعد.

نهضت قائمة وهي تتمتم:

- سأفعل.

خلعت جلبابها الأسود، ونزعت الخمار عن رأسها، وهي تشعر بعيون الجد تراقبها، تغلبت على خجلها ووقفت في وسط المطبخ محرجة، لا تدري ماذا تقول، أو ماذا تفعل. كانت الجدة تنتقل بحماس بين المائدة والموقد، وأثناء عملها تلتفت إلى نوف باسمة.

كانت غرفة الطعام تطل على الحديقة الخلفية،

obeikandl.com

اقتربت نوف من الباب الزجاجي العريض الذي يفصل غرفة الطعام عن الحديقة ووقفت تتأمل بإعجاب الحديقة التي بدا واضحاً أنها قد حظيت بقدر كبير من العناية والتنسيق، وأدهشها أن تجد حجم الحديقة أضعاف حجم المنزل ذاته، وفيما بعد عرفت أن الأمريكيين يهتمون بحجم الحديقة الملحقة بالمنزل أكثر من حجم المنزل ذاته، وهم في ذلك على النقيض تماماً من الكويتيين الذين يتركز اهتمامهم بالحصول على منازل كبيرة بحدائق صغيرة، وربما بغير حدائق إذا استدعى الأمر.

غالبت ارتباكها وقالت للجدة:

- حديقة جميلة.

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه الجدة وقالت:

- شكراً.. يسرني أنها أعجبتك، هذا رأي جاراتي أيضاً.

جلسوا جميعاً حول مائدة الطعام، وراحت الجدة تمارس دور المضيفة من خلال حث ضيوفها على تذوق ما أعدته:

- خذ قطعة لحم من طبق (الستيك) يا يوسف.
سألت الأب: وهل نوف ماهرة بالطهي مثلك؟

التفتت الجدة إلى نوف وقالت:

- اعتاد والدك في الماضي على طهي المأكولات الشرقية لنا.

قال أبوها وهو يضع قطعة من اللحم في صحنه:

- إنها تجيد الطهي، سترين يا جين.

تساءل الجد:

- أين وصلت في دراستك يا نوف؟

نظرت إلى أبيها الذي كان يبتسم لها مشجعاً، وأجابت بصوت خفيض:

- أنا في الجامعة.

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه الجد وقال لزوجته مسروراً:

- إنها في الجامعة، أليس ذلك عظيماً يا جين!

بادلته الجدة الفرح وهي تهز رأسها سروراً وتقول:

- بلى إنه عظيم جداً.

لم تدر (نوف) ما العمل العظيم الذي قامت به، ولكنها رأت والدها يبتسم فابتسمت بدورها.

عاد الجد يسأل:

- في أي كلية؟

لم تدر كيف تقول كلية الشريعة باللغة الإنجليزية،

obeikandl.com

فساعدها الأب في الترجمة، ومن جديد عاد الجدان يهتفان بسعادة:

- عظيم.. عظيم جداً.

لم تتمالك نفسها من الضحك على استحياء هذه المرة، فقد بدا لها أن العظمة صارت سمة لكل عمل تقوم به!!

عندما انتقلوا إلى غرفة الاستقبال لتناول القهوة قال لها أبوها:

- نوف.. قدمي لجديك الهدايا التي أحضرتها لهما.

هتفت الجدة:

- أوه يا يوسف.. هذا كرم بالغ منك ومن نوف.

فتحت نوف الحقيبة الصغيرة التي ملأتها نوال ببعض الهدايا، وفي الحقيقة لم يخطر ببالها مسألة الهدايا قط، وكانت نوال هي التي نبهتها إلى ذلك، وجهزت لها كل شيء.

قدمت لجدتها (دراعة)[١] من الحرير بلون الرمل موشاة بخيوط مذهبة. هتفت الجدة وهي تعرض الدراعة أمام زوجها:

- أوه.. انظر مايكل.. أليست رائعة؟

---

(١) ثوب شعبي ترتديه ربة المنزل عند استقبال ضيوفها.

- بلى إنها رائعة جداً.

ضمتها الجدة وهي تكرر بحنان:

- شكراً.. شكراً جزيلاً يا عزيزتي.

قدمت لجدها نعلين ومنامة منزلية وقالت على استحياء:

- أرجو أن تعجبك.

انتصب الجد قائماً وارتدى النعلين وهو يردد:

- إنها رائعة.. رائعة جداً.. انظري يا جين.

قال الأب وهو يشير إلى علب أخرى في الحقيبة:

- وهذه بعض المأكولات الكويتية الشعبية، أصرت زوجتي على إرسالها إليكم. فتح العلبة الأولى وأضاف: هذه درابيل[١]، وهذا رهش[٢]، وهذه الصينية تحوي تشكيلة مختلفة من الحلويات.

رفع الأب قارورة ذهبية لحفظ حرارة السوائل على شكل (دلة) كويتية وأضاف ضاحكاً:

- وهذه الحلويات لا تؤكل إلا مع قهوة توضع في إناء مثل هذا.

أخذ الجدان يتذوقان قطعة من كل علبة، ومع كل

---

(١) رقائق من الطحين والسكر.

(٢) حلوى طحينية.

لقمة كانا يبديان إعجابهما المفرط كعادة الأمريكيين عند تقديم الهدايا لهم:

- أوه إنها لذيذة يا إلهي هذا كثير.

أشارت الجدة إلى صندوق للثلج متوسط الحجم وتساءلت في حيرة:

- وما هذا؟

أجاب الأب ضاحكاً:

- هذا سمك.

اتسعت عينا الجدة وهي تسأل:

- سمك؟

- نعم هذا سمك زبيدي تشتهر به منطقة الخليج، وستسر نوف بطهيه لكم.

تبادلت الجدة النظرات مع زوجها في فرح وهتفت:

- أوه.. هذا كثير.. حقاً كثير يا يوسف.

ومن جديد احتضنت نوف وهي تكرر:

- شكراً.. شكراً يا عزيزتي.

حاولت نوف جاهدة أن تظل مستيقظة بعد أن صلت المغرب، لكن اختلاف التوقيت بين أمريكة والكويت غلبها فنامت، ثم استيقظت ثانية لتصلي العشاء، وفي الساعة الثالثة فجراً كان النوم قد جفاها تماماً. شعرت

obeikandl.com

أن البيت يغط في سكون تام، وفكرت أن أباها ينام في الغرفة الأخرى المجاورة لغرفتها. استعرضت في ذهنها تفاصيل لقائها بجديها وابتسمت.. لم يكن الأمر بالصعوبة التي تصورتها، والحقيقة أنها وجدتهما لطيفين جداً.

أرادت أن تشغل نفسها فقامت بإفراغ حقيبتها، وترتيب حاجياتها في الدولاب، ولما انتهت استلقت في فراشها تقرأ في بعض الكتب التي أحضرتها.

بعد أن صلت الصبح انسلت من غرفتها إلى غرفة الاستقبال، ثم إلى غرفة الطعام الصغيرة الملحقة بالمطبخ، وهنالك وقفت تتأمل الحديقة البديعة وخيوط الشمس تبدأ في الانتشار في أرجائها، اشتمت رائحة في البيت لم تستطع تفسير كنهها.. رائحة تختلف عن رائحة بيتهم في الكويت.. رائحة تتميز بها عادة البيوت الأمريكية، إنها الرائحة نفسها التي اشتمتها في بريطانية حين زارتها، وقد تكون الرائحة عالقة بالبلاد التي تتميز بالجو البارد.

انتبهت لوجود باب خشبي صغير على يسارها، ولما فتحته رأت تحت قدمها مباشرة درجاً ضيقاً يقود للأسفل، لم تجرؤ على النزول، لكنها أدركت وجود سرداب في أسفل. أغلقت الباب بلطف حتى لا يصدر صوتاً، ثم فتحت باب الحديقة الزجاجي، وراحت تتجول بين الأشجار وأحواض الزهور. كان الجو يميل إلى

البرودة قليلاً، لكنها لم ترغب بالعودة إلى الداخل، وسارت إلى ركن جميل في آخر الحديقة، جهز بكراسي خشبية ومنضدة، وجلست تتأمل الأزهار والأشجار والطيور والسناجب التي اعتلت الشجرة القريبة منها، وابتسمت.. لم يحدث أن شاهدت سنجاباً قط إلا في أفلام الرسوم المتحركة، وكانت السناجب تتسلق الشجرة في صعود ونزول غير عابئة بوجود نوف قريباً منها، وكأنها ألفت وجود الناس في الحديقة.

جفلت حين سمعت صوتاً يقول:

- أرى أنك استيقظت باكراً.

رأت جدها مقبلاً، وقد ارتدى معطفاً منزلياً فوق منامته.

جلس بقربها وهو يقول:

- هل من عادتك الاستيقاظ باكراً، أم هو فرق التوقيت؟

أجابت وهي تبتسم:

- استيقظت في الثالثة.. جفاني النوم تماماً، لكنني في العادة أستيقظ باكراً، لا أحب النوم إلى ساعة متأخرة.

اتسعت ابتسامة الجد وهو يقول:

- عظيم جداً، فالاستيقاظ المبكر يمنح صاحبه النشاط والحيوية. هل أعجبتك الحديقة؟

openkandil.com

- إنها جميلة جداً.

قال مزهواً:

- إنني أعتني بها كثيراً.

- واضح جداً.

أشار إلى الشجرة القريبة منها وأضاف:

- أغلب الأشجار غرستها بيدي.. تلك الشجرة غرستها حين كانت أمك في العاشرة من العمر، وتلك الأزهار أقوم بتغيير فسلاتها، في كل موسم، أما ذلك البيت الزجاجي فقد خصصته لزراعة الخضراوات، فالجو كما تعلمين يكون بارداً جداً في الشتاء، ولا يناسب الخضراوات بتاتاً و...

مضى الجد يعدد لها أسماء النباتات، ومواسم زراعتها، وهي تنصت له دون أن تعي كثيراً مما يقول، فليس لديها خبرة بالزراعة. تظاهرت بأنها مهتمة بحديثه، وراح يتجول معها في أرجاء الحديقة وهو يكمل شرحه، وأنعشها الجو البديع، وروائح الأزهار فشعرت ببهجة، وميل لهذا الرجل المسن بقربها، والمهتم بتقديم كل ذلك الشرح لها.

نادت الجدة من داخل المنزل:

- أرى أنكما قد استيقظتما باكراً، حان موعد الإفطار.

أحاط الجد كتفها بذراعيه وقال:

- لندخل.

وجدت أباها جالساً في غرفة الاستقبال يجري بعض الاتصالات الهاتفية، وحالما رآها سألها بالعربية:

- كيف كانت ليلتك؟

- الحمد لله.

جلس الجد بجوار الأب وهو يسأل:

- هل من الضروري أن تسافر اليوم يا يوسف؟ ابق معنا بضعة أيام.

ابتسم الأب وقال:

- لابد من ذهابي، وقد رتبت حجز الطائرة.

أرادت نوف أن تقول شيئاً، لكن وجود الجد بقربها منعها فآثرت السكوت، والانضمام إلى الجدة لمساعدتها في إعداد الطعام، وما هي إلا دقائق حتى دعتهما الجدة لتناول الإفطار في غرفة الطعام.

دهشت نوف حين قدمت لها الجدة كوباً من الحليب البارد! تساءلت في سرها كيف يتسنى لأي امرئ أن يشرب الحليب بارداً.

سألتها الجدة:

- هل ترغبين ببعض رقائق الذرة؟

obeikandl.com

لم تكن تميل كثيراً إلى هذا اللون من الطعام، وإن كان هو الطبق المفضل على الإفطار لدى أخواتها الصغار، بيد أنها قبلته مجاملة للجدة، وبعد أن تناولت عدة لقيمات قالت:

- إنه لذيذ.

- إنها رقائق بالقرفة.

- لذيذة جداً.

قالت الجدة وهي تضع الإناء على المائدة:

- خشينا أنا وجدك ألا تكوني تتكلمين الإنجليزية.

قالت نوف بارتباك:

- إنني لا أتكلمها جيداً.

صاحت الجدة:

- أوه.. بلى.. إنجليزيتك ليست سيئة على الإطلاق.

☆ ☆ ☆

obeikandl.com

obeikandl.com

رحيل

قبيل الظهر استعد الأب للمغادرة، وخرج الجد معه ليقله بسيارته إلى المطار. سارت نوف إلى جانبه باتجاه السيارة وقال الأب ملاطفاً:

- ها قد رأيت أن الأمر لم يكن بالصعوبة التي تخيلتها!

هزت رأسها موافقة على مضض وقالت:

- ربما.. ولكن.. ولكن لم يجب عليَّ أن أبقى هنا بمفردي؟

وقف الأب فجأة، وسدد إليها نظرة فاحصة ثم سأل:

- ألم تألفيهما بعد؟ إنهما لطيفان.

هزت رأسها بقوة وقالت:

- نعم.. لكن.. لكن كيف أبقى وحدي شهراً كاملاً؟

قبلها الأب وقال:

- اطمئني! إنهما لن يفترساك!!

obeikandi.com

قالت في استعطاف:

- عدني أنك لن تغيب أكثر من شهر.

- وعدتك بذلك مراراً.. اطمئني لن أغيب أكثر من شهر.

راقبته بأسى وهو يدلف إلى داخل السيارة التي ما لبثت أن انطلقت به، ولوح لها مودعاً فلوحت له بفتور، وأتبعت السيارة بصرها حتى غابت عنها في نهاية الشارع.

يممت تجاه المنزل، وألفت جدتها واقفة عند الباب، وما إن دخلت المنزل حتى وضعت كفها على كتف نوف قائلة برقة:

- عزيزتي.. أعلم ما تفكرين فيه.. أظنك مستاءة لكونك ستقيمين مدة من الزمن مع أناس لا تعرفينهم، ولست ألومك على ذلك.. صدقيني.. لا ألومك على الإطلاق، لو كنت مكانك لشعرت بمثل ما تشعرين به.

شعرت بشيء من الحرج، ولم تدر ماذا تجيب. أجلستها الجدة بقربها على الأريكة وهي ممسكة بكفها بين يديها وقالت بحرارة:

- نوف.. وصمتت برهة قبل أن تكمل: "لن يكون الأمر صعباً.. فقط امنحينا هذه الفرصة التي طالما تمنيناها أنا وجدك، أنا متأكدة أن العلاقة ستتوطد فيما بيننا".

obeikandl.com

اليوم الأول

ما إن أنهت الجدة غسل الأطباق حتى قالت لنوف بحماس:

- والآن! ما رأيك لو أخذتك في جولة في مدينتنا الصغيرة؟ سنزور السوق المركزي القريب من منزلنا.

ما إن غادرتا المنزل وسارتا بضع خطوات حتى التقت الجدة بجارة لها ووقفت تحييها وتبادلها الحديث:

- أهلاً مارتا.

- أهلاً يا جين.. تفحصت الجارة نوف جيداً وسألت:

- أهذه حفيدتك القادمة من الشرق؟

أجابت الجدة مزهوة:

- نعم.. هذه هي.. انظري إليها يا مارتا أليست رائعة؟

هزت الجارة رأسها وأجابت:

- بلى، إنها كذلك.. لقد صدعت جدتك رأسي

بالحديث عنك، طوال شهرين كاملين وهي تحدثني عنك وعن بلادك، لماذا ترتدين هذه الثياب السوداء الطويلة؟ هل أنت في حداد؟

أسرعت الجدة تجيب:

- حفيدتي مسلمة يا مارتا، وهذا لباس النساء هناك.

قالت مارتا:

- آه.. نعم. عادت تسأل نوف: هل لك أن تخبريني عن كيفية استعمال خبز البيتا، كيف تستخدمونه؟

سألت نوف جدتها:

- ما هو خبز البيتا؟

أجابت الجدة:

- إنه الخبز العربي الأبيض الذي تستخدمونه في بلادكم، نحن غالباً نستخدم التوست.

قالت نوف مستدركة:

- آه.. عرفته.. تستخدمينه مثل أي خبز آخر.

تساءلت مارتا باهتمام:

- هل أستطيع حشوه.

- طبعاً.

- بماذا؟

obeikandl.com

- بكل شيء.

تدخلت الجدة قائلة:

- بعد إذنك يا مارتا، فنحن ذاهبتان إلى السوق المركزي.

قالت مارتا:

- لقد قدمت لتوي من هناك، هناك تخفيض اليوم على سعر الطماطم والبيض و...

قاطعتها الجدة وهي تقبض على كف نوف وتهم بالانصراف:

- جيد.. نراك لاحقاً.

- تعالي لشرب الشاي عندي مع حفيدتك يوماً.

بعد أن سارتا قليلاً قالت نوف:

- إنها لطيفة جداً.

علقت الجدة:

- نعم، لكنها فضولية، وكثيرة الكلام.

ضحكت نوف وقالت:

- مثل سائر النساء.

في أثناء الطريق كانت الجدة تلفت نظر حفيدتها إلى بعض معالم المدينة مثل مكتب البريد، والمدرسة الابتدائية القريبة منهما والمستشفى.

obeikandl.com

كان السوق المركزي كبيراً، والبضائع صفت فيه بتنسيق رائع. سرعان ما ملأت الجدة العربة، التي أصرت نوف على دفعها بدلاً منها، بأنواع مختلفة من الأطعمة، وكانت تلح على نوف لشراء ما ترغب، وتحت إلحاح الجدة، اختارت نوف بعض أنواع البسكويت والسكاكر، وصادف أن التقت هناك أيضاً ببعض معارف الجدة التي كانت تسارع بتقديم نوف للطرف الآخر:

- هذه حفيدتي نوف. وحين كانت تلمح نظرات الاستغراب في العيون كانت تسارع للتوضيح:

- أبوها من الكويت، لا شك أنك سمعت بالكويت طبعاً.

قالت لها الجدة وهما في طريق العودة:

- قبل احتلال العراق للكويت ما كان أحد في مدينتنا قد سمع ببلادك، وحين كنت أقول لأحدهم إن زوج ابنتي من الكويت، كنت في كل مرة أسمع السؤال ذاته يتكرر: "وأين تقع الكويت" فأجيب بدوري: إنها بالقرب من السعودية. إنهم يعرفون السعودية جيداً، لكن ما من أحد كان قد سمع بالكويت، أما بعد احتلال العراق لها، فالكل صار يعرفها.

بعد أن انتهوا من تناول طعام الغداء أصرت نوف على غسل الأطباق بدلاً من جدها الذي مازحها قائلاً:

- إنه دوري اليوم.

- أرجوك يا جدي، اسمح لي بغسلها بدلاً منك.

- لا يصح ذلك أنت ضيفتنا.

ضحكت وهي تشمر كم ثوبها:

- بل لا يصح أن أدعك تغسلها.

أطلت الدهشة من عينيه الزرقاوين وسأل:

- ولم؟

أجابت وهي تلف المريلة حول خصرها:

- لأسباب عدة.. أولها أنه من البر بك أن أقوم على خدمتك.. أن أدعك ترتاح وأنا أقوم بالعمل بدلاً عنك، وثانياً لأنه من عمل النساء لا الرجال.

قهقه الجد قائلاً:

- هذا عندكم في الكويت وليس في أمريكة.

أضافت الجدة باسمة:

- لا فرق بين الرجل والمرأة في بلادنا.

صمتت نوف برهة لتستحضر في ذهنها بعض ما تعرفه من مرادفات لغوية ثم قالت:

- أتعرفين يا جدتي، أنا أعتقد أن المرأة هي المرأة، والرجل هو الرجل سواء في أمريكة أو الكويت أو أي بلاد أخرى، وستظل المرأة هي المرأة، والرجل هو الرجل مهما بلغ التطور والحضارة في بلادهما،

obeikandl.com

فهذه فطرة الله تعالى التي أودعها في الجنسين، ومن ثم يظلان عاجزين عن تبادل الأدوار بينهما.

نظرت الجدة إلى حفيدتها بإعجاب وبدت سعيدة بالحوار الدائر معها، ولذلك عادت تسأل:

- ولهذا أنت ترين أنه من الخطأ أن يقوم الرجل بغسل الأطباق!!

هزت نوف رأسها نافية:

- لا.. لا.. أنا لا أقول ذلك مطلقاً، بل إن مساعدته لزوجته ينم على خلقه الرفيع، وهذا ما كان يفعله نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم مع زوجاته، ولكني أتحدث عن القضية بشكل عام، ولست أقصد غسل الأطباق تحديداً.. أقصد تحديد الأدوار بين الرجل والمرأة في الحياة.

بعد أن أنهت كلامها استغربت تلك الثقة والطلاقة في الحديث التي أوتيتها.

قال الجد:

- ولماذا تستغربين ذلك يا جين، منذ أن فتحت عيني على الدنيا وأنا أرى والدتي تقوم بالأعمال المنزلية، في حين يتولى أبي كل عمل خارج البيت.. يقوم بمسؤولياته المطلوبة منه.

هتفت الجدة:

obeikandl.com

- آه.. أنت سعيد بهذا الحديث لأنه يصب في مصلحتك، واضح أن نوف متحيزة لك.

احتجت نوف وهي تباشر غسل الأطباق:

- بل كنت سأفعل الأمر نفسه معك يا جدتي.. ما كنت لأتركك تغسلين الأطباق، وأكتفي أنا بالجلوس.

تساءلت الجدة باهتمام:

- ولم يا نوف؟

أدارت رأسها نحو الجدة، وهي منهمكة بإزالة بقعة من جلد الدجاج علقت بقاع القدر:

- لأنه ليس من البر بك! الجدة عندنا في مقام الأم، وكما لا يليق بي أن أجلس وأدع أمي تتولى غسل الأطباق، يحسن بي ألا أفعل ذلك مع جدتي أيضاً.

- كلام جميل يا عزيزتي.

أردف الجد مقهقهاً:

- ومقنع جداً.

في مساء اليوم الأول، جلس الجدان يرتشفان القهوة، في حين انهمكت نوف بإرسال رسالة إلى شوق عبر البريد الإلكتروني قالت فيها:

عزيزتي شوق..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،،

obeikandl.com

ها أنا ذا أجلس لأحدثك عن أول يوم لي في أمريكة قضيته مع جديّ. الحقيقة أنهما لطيفان جداً، ولم أشعر بغربة كبيرة معهما كما تصورت، بل الغريب أنني شعرت وكأني قد عرفتهما منذ زمن طويل، لقد مر اليوم سريعاً ولم أشعر بالملل، ودهشت حين وجدت نفسي أتبادل الحديث معهما بلا كلفة ولا صعوبة، وأسعدني أن وجدت لغتي الإنجليزية ليست بالسوء الذي تصورته، وإن كنت أجد أحياناً صعوبة في فهم بعض ما يقصدونه، أو توضيح ما أريد قوله لهما، لكنني أظن أنني سأتغلب على ذلك مع مرور الأيام، وها قد انتهى اليوم الأول بصورة طيبة.

اعذريني يا عزيزتي، فلا بد أن آوي إلى فراشي مبكراً، فأنا مازلت تحت تأثير اختلاف التوقيت، إذ أنام بتوقيت الكويت وأصحو بتوقيت الكويت، ولكنني أتوقع أن أتغلب على ذلك في غضون أيام قليلة.

سلامي لجميع الأهل والأخوات، وأرجو ألا تنسيني من صالح دعائك.

(نوف)

☆ ☆ ☆

openkandil.com

وجبة كويتية

في اليوم التالي اقترحت الجدة أن يتغدوا السمك الزبيدي الذي أحضرته نوف التي وافقت، لكنها أوضحت للجدة أنها لا تجيد الطهي، فطمأنتها الجدة ضاحكة:

- لا تقلقي.. سأساعدك.. هل نشويه أو نقليه؟

أجابت نوف:

- الزبيدي عادة لا يشوى، بل يعمل منه طبق كويتي مشهور هو (مطبق الزبيدي).

تساءلت الجدة باهتمام:

- وما ذاك؟

- رز وفوقه السمك المقلي، لكنني لا أعرف طريقة عمله بالضبط وعلي أن أستعين بنوال.

أوضحت "نوف":

- إنها زوجة أبي.. سأتصل بها الآن.

أسرعت إلى هاتفها النقال، وسرعان ما راحت نوال

تملي عليها كيفية عمل المطبق ونوف تكتب الخطوات في ورقة، والجدان يتابعانها بإعجاب، حتى إذا ما انتهت شرعت تشرح لجدتها:

- علينا أولاً تنظيف السمك، ثم حشوه بالتوابل والبصل.

نهضت الجدة قائلة:

- عظيم سأقوم بتنظيفه فوراً.

تبعهما الجد قائلاً:

- وأنا سأقطع البصل.

ضحكت نوف:

- حتى أنت يا جدي!

أجاب:

- ولم لا؟ أريد أن أتعلم الطبخ الكويتي.

انهمك ثلاثتهم بالعمل في المطبخ، ونوف تمسك بورقة الوصفة، وتقوم بإرشادهما إلى الخطوة الجديدة كلما أنهى أحدهما المطلوب منه، وحين عرضت الجدة على نوف أنواع التوابل الموجودة في مطبخها لم تتمكن نوف من معرفتها بأسمائها الإنجليزية واضطرت إلى الاستعانة بالقاموس الناطق، وكلما احتاجت إلى أنواع أخرى لا تعرف اسمها بالإنجليزية كانت تستعين بالجهاز من جديد لتقرأه الجدة، ومن ثم تسارع بإحضاره من هذا الرف أو ذاك.

obeikandl.com

في أثناء عملية قلي السمك اضطرت نوف إلى أن تعاود الاتصال بنوال أكثر من مرة لتستفسر منها عن بعض الأمور، وكلما اتصلت بالكويت علق الجد ضاحكاً:

- يا سلام يا لها من وجبة إنه طبق عالمي فعلاً.. طبق عبر الأقمار الصناعية.. نحن في عصر التكنولوجية بالفعل؛ نحن نطهو هنا، والإرشادات تأتينا من الكويت عبر المحيط، ما أبدع هذا.

عندما ترك الرز لينضج على النار قالت نوف:

- ينبغي علينا الآن عمل الدقوس.

تساءل الجد:

- وما هو (الدقوس)؟؟

- إنه عبارة عن صلصة طماطم متبلة بالثوم، والكمون، تؤكل عادة مع (المطبق).

عند الرابعة كان الطعام جاهزاً، وجهز الجد المائدة. غرفت نوف الرز في طبق كبير مستطيل ووضعت السمك فوقه بعناية، وزينت الحواشي بالبصل المفروم الذي شوحته على النار بالكركم والليمون الأسود. وحين تحلقوا حول المائدة المطلة على الحديقة البديعة تشمم الجد رائحة الطعام التي عبقت في الغرفة وصاح:

- يالها من رائحة زكية، سأشبع بمجرد الشم.

obeikandl.com

هزت الجدة رأسها مؤكدة:

- إنها رائحة زكية بالفعل وشهية، أنتم تحسنون استخدام التوابل.

حين تذوق الجد اللقمة الأولى كاد يغص بها وهو يصيح من جديد:

- لذيذ.. لذيذ جداً.

انهمك الثلاثة في الأكل، راقب الجدان نوف وهي تسكب (الدقوس) على الرز وفعلا مثلها، وبين الفينة والأخرى كان الجد يطلق أحد تعليقاته الضاحكة، وكانت الجدة تراجع مع نوف خطوات ما تم طهيه.

حين انتهوا من طعامهم هتف الجد وهو يضرب على بطنه:

- يالها من وجبة.. حقاً يالها من وجبة، شكراً لك حفيدتي العزيزة.

لم تعرف نوف كيف تقول كلمة (بالعافية) بالإنجليزية فقالت:

- نحن في الكويت نقول (بالعافية) لمن أعجبه طعامنا.

ردد الجد الكلمة بحماس:

- با آفيا.. با آفيا. التفت إلى الجدة وقال:

- حان الآن دور القهوة يا عزيزتي.

قالت نوف:

- ما رأيكم لو عملت لكم قهوة كويتية؟

هتفت الجدة باندهاش:

- أهناك قهوة كويتية أيضاً؟

استدركت نوف:

- أقصد قهوة عربية.. إنها مناسبة للطعام الدسم.

تساءل الجد:

- لعلك تقصدين القهوة التركية.

ابتسمت نوف وقالت:

- بل أقصد القهوة العربية، وهي مختلفة عن القهوة التركية، هذا النوع من القهوة معروف في بلاد شبه الجزيرة العربية فقط، وهو يطيب بالهال والزعفران، وسأعدها حالاً.

عادت من المطبخ تحمل صينية عليها دلة القهوة والفناجين التي زودتها بها نوال، ولما وضعت الصينية على المائدة قالت:

- القهوة العربية تشرب عادة بهذه الفناجين.

حين سكبت القهوة في الفناجين انتشرت رائحتها المفعمة بالهيل في الغرفة، وهتفت الجدة:

- يالها من رائحة زكية.

obeikandl.com

بعد أن شربا، هتف الجد:

- مم.. أهذه قهوة؟ لذيذة فعلاً!

لما استنشقت الجدة الرائحة تساءلت:

- أوه.. يالها من رائحة زكية.. ماذا وضعت بها؟

أجابت نوف:

- أضفت لها حبات من الهيل، لكنني لا أعرف اسمه بالإنجليزية، سأحضر الأطلس.

لما قرأت الجدة الكلمة بالإنجليزية صاحت:

- آه..Cardamom .. لا عجب أن رائحتها زكية.

شرب الجد عدة فناجين، ومع كل فنجان كان يكرر:

- لذيذة.. لذيذة جداً.

علقت الجدة:

- ما حسبتها قهوة.. إنها ليست ثقيلة كالقهوة التركية، ولا شبيهة بالقهوة الأمريكية، كما أن لونها فاتح جداً.

قالت نوف:

- يسمونها في بلادنا قهوة شقراء.

هزت الجدة رأسها مؤكدة كلامها:

- لونها بالفعل يميل إلى الأصفر.

obeikandl.com

أصرت نوف أن تغسل الأطباق بمفردها دون عون من الجدة:

- أرجوك ياجدتي.. دعيني أفعل ذلك، حتى أقول لصديقتي شوق عندما أعود إلى الكويت إنني غسلت الأطباق لجدتي.

ترددت الجدة برهة ثم قالت محرجة:

- حسناً.. مادامت هذه رغبتك.

بعد أن انتهت نوف من غسل الأطباق قالت لجدتها:

- بقيت سمكة واحدة وقليل من الرز، ما رأيك يا جدتي لو حملتها إلى جارتك التي التقيناها بالأمس.

رحبت الجدة بالفكرة وقالت:

- لمارتا؟ ستسر بذلك كثيراً!

احتج الجد مازحاً:

- لو ذاقت مارتا هذا الطعام، فستطلب منا كل يوم مثله، ثم إنني كنت أنوي الاحتفاظ بالسمكة الباقية لعشائي.

ضحكت نوف وقالت:

- ليكن لديك إيثار يا جدي.

تساءل الجد:

- إيثار؟ وما هو الإيثار؟

obeikandl.com

استدركت نوف:

- صحيح.. من الصعب أن أشرح لك معنى هذه الكلمة، لأنه لا يوجد لها مرادف في أية لغة أخرى.

قالت الجدة، وهي تلف ورقاً من الألمنيوم حول طبق السمك الذي ستحمله إلى مارتا:

- قد لا يوجد لها مرادف، لكن بالإمكان شرح المعنى.

- نعم.. إنها تعني أن يقدم الإنسان لأخيه الإنسان ما هو في أمس الحاجة إليه من طعام أو شراب أو مال.

سأل الجد باهتمام:

- ولماذا يفعل ذلك؟

- لينال الأجر والثواب من الله تعالى في الحياة الآخرة، فضلاً عن شعوره بالسعادة وهو يقوم بعمل خير. هل نذهب يا جدتي؟

- نعم.. هيا بنا.

تثاءب الجد وهو يتمطى قائلاً:

- أظنني سأحصل على إغفاءة قصيرة في غيابكم.

☆ ☆ ☆

obeikandl.com

مارتا

كان منزل العجوز مارتا في أول الشارع، لم يكن كبيراً بحجم منزل الجدين، لكنه حظي مثله بحديقة أمامية منسقة.

حين فتحت مارتا الباب قالت الجدة ضاحكة:

- جئتك بطبق شرقي من صنع حفيدتي.

لاح مزيج من الفرح والدهشة في عيني الجارة التي هتفت:

- أوه.. أنا ممتنة لكما.. تفضلا..

قالت الجدة وهي تجلس على الأريكة في غرفة الاستقبال الصغيرة:

- لقد طهت لنا نوف اليوم سمكاً، أنا متأكدة أنه سيعجبك، إنه لذيذ جداً يا مارتا.

أخذت مارتا تنزع ورق الألمنيوم بلهفة وهي تقول لنوف:

- سمك؟ أنا أحب السمك؟

obeikandl.com

استغربت نوف حين رأت مارتا تسرع لإحضار ملعقة وتباشر الأكل دون تردد، فقد ظنت أنها ستتناول الطعام بعد انصرافهما، لكن استغرابها سرعان مازال وحل مكانه سرورها برؤيتها رد فعل مارتا مباشرة لطهيها.

- أوه.. إنه لذيذ بالفعل.. من أين حصلت على هذا النوع من السمك؟

أجابت الجدة:

- أحضرته نوف معها من الكويت.

دهشت مارتا وصاحت:

- حقاً؟ أحملته كل هذه المسافة؟ كيف؟

- في صندوق للثلج.

- أتعنين أنه لا يوجد منه هنا في أمريكة.

قالت الجدة:

- أظنني رأيت مثله في ولاية كولورادو أو كاليفورنية.

سألت مارتا بعد أن انتهت من الطعام ومسحت فمها بمنديل ورق:

- وأنت التي قمت بطهيه.

أجابت نوف:

- لقد ساعدتني جدتي، وجدي أيضاً.

ربتت الجدة على ركبة نوف وقالت:

- لكن أنت كنت (الشيف)[١]. التفتت إلى مارتا وأردفت:

- ثم صنعت لنا بعد ذلك يا مارتا قهوة كويتية لذيذة، أوَتظنين أن ذلك كل شيء؟ أتدرين ما فعلت هذه الحفيدة العزيزة، لقد أصرت على غسل الأطباق بمفردها دون معونتي.

رمقتها (مارتا) بإعجاب وسألت:

- ولماذا فعلت ذلك يا (نوف)؟

أجابت نوف:

- الجواب بسيط جداً، إنه واجبي تجاه جديّ.. أن أبرهما.. هذا ما يأمرني به ديني.

تساءلت مارتا دهشة:

- وما دينك يا نوف؟

- الإسلام.

عادت مارتا تسأل باهتمام:

- أهو دينك الذي يأمرك أن ترتدي هذه الثياب الطويلة التي تغطيك من رأسك حتى أخمص قدميك؟

---

(١) رئيس الطباخين بالإنجليزية.

هزت نوف رأسها باسمة وقالت:

- نعم.. أعلم أنك مندهشة من ثيابي، وربما ترينها قبيحة. لوحت (مارتا) معترضة:

- أوه.. لا.. لست أراها قبيحة على الإطلاق، بل في الواقع أراها جميلة جداً.

رمقتها نوف باندهاش وهتفت:

- حقاً!!

ضمت مارتا كفيها إلى صدرها بقوة وقالت:

- صدقيني إنني أراها في غاية الجمال! كنت أريد أن أبدي لك إعجابي بها بالأمس حين التقيتك، أتظنينني أعجب بثياب بنات اليوم الفاضحة.. هذه التي لا تكاد تستر من أجسادهن شيئاً!! إنها لا تعجبني على الإطلاق!

لاحت الدهشة في عيني نوف:

- إني.. إني مندهشة.. مندهشة فعلاً.. لم أتوقع أن يكون هذا هو رأيك.. ظننت.. أقصد.. كونك أمريكية و..

قاطعتها مارتا:

- أدرك ما تقصدين، تظنين أنه لكوني أمريكية أقبل بهذا العري الذي أراه لدى النساء اليوم.. أبداً..

obeikandl.com

ما كنت لأقبل ذلك مطلقاً،وهو ما كان يراه زوجي المرحوم أيضاً.

حدقت فيها نوف ذاهلة وعادت تكرر:

- لا أصدق أنك أمريكية.

تطلعت الجدة مباشرة إلى حفيدتها وقالت بتأثر:

- وأنا حين أراك يا نوف في هذه الملابس الساترة لا أصدق أنك بنت كليرا!!

عادت مارتا تسأل:

- ولماذا يأمر الإسلام المرأة أن ترتدي هذه الثياب الطويلة التي تغطيها من رأسها حتى أخمص قدميها؟

أجابت نوف بثقة:

- ليحميها.

تساءلت المرأتان:

- يحميها؟ مم؟

- من نفسها، ومن الرجال ضعاف النفوس حولها، أوممن تسول له نفسه أن ينتقص من شأنها، وليحافظ على المجتمع بشكل عام.

قربت مارتا رأسها منها وسألت بإلحاح:

- كيف؟ كيف؟

أطرقت نوف قليلاً وراحت تراجع بعقلها المفردات

obeikandl.com

الإنجليزية التي ستحتاجها في حديثها، ولما استجمعت أمرها قالت:

- يهدف الإسلام إلى إنشاء مجتمع فاضل.. مجتمع راقٍ.. مجتمع يحدد العلاقة بين الرجل والمرأة بصورة مشروعة هي الزواج، وخروج المرأة إلى الشارع بهذه الثياب الساترة يقلل من طمع الرجل فيها، ولن تثير غرائزه وشهواته.

- لكن ثياباً مثل ثيابي هذه، وامرأة في سني لن تثير شهوة الرجال.

- صحيح، لكن الإسلام يحدد ضوابط عامة للمجتمع ككل، وإذا لم تتوفر مثل هذه الضوابط العامة، فإن النفس ستغلب صاحبها، وسرعان ما ستجد المرأة لها من الأعذار ما يجعلها تتخفف من ثيابها شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى العري!

هزت مارتا رأسها موافقة:

- هذا صحيح.. كل من يقرأ تاريخ بلادنا يعلم سخط المجتمع على المرأة حين ارتدت لباس البحر لأول مرة.. كان لباساً محتشماً جداً قياساً لما يسمونه لباس البحر اليوم، ومع ذلك واجهت معارضة شديدة، لكن الاعتراض سرعان مازال وألف الناس رؤيتها بلباس البحر، فكان أن طمعت أكثر وصارت تتخفف من حشمتها حتى وصلت إلى البكيني.

تساءلت الجدة:

- لكن قد لا تقصد المرأة إثارة شهوة الرجل، خصوصاً إذا ما ألفت ارتداء مثل هذه الثياب في بلادنا، بل إن الثياب الساترة مثل ثيابك ستكون هي الغريبة وغير المألوفة.

هزت نوف رأسها موافقة:

- هذا صحيح.. فالألفة للشيء تجعل الأمر المخالف غريباً، وقد لا تقصد المرأة بعريها إثارة شهوة الرجل، وكل ما في الأمر أنها اعتادت مثل تلك الثياب، لكن الرجل سيلتفت لها وربما تحرش بها، فالرجال ضعاف كما تعلمين، وربما ضعفت هي أيضاً واستجابت لدعوته، ولذلك يريد الإسلام أن يحميها من نفسها كما يحميها من الرجل.. يريد أن يولد بداخلها شعوراً قوياً بالعفة، لكن كلامي لا يعني أن كل من ترتدي هذه الثياب تحافظ على عفتها فلكل قاعدة شواذ كما تعلمين، لكن نحن نتكلم على قواعد عامة تنظم المجتمع وتحميه بشكل عام.

كانت مارتا تنصت لنوف مأخوذة، وحين أنهت الأخيرة حديثها تمتمت مارتا:

- جميل.. كلام جميل.

في تلك الليلة جلست نوف أمام جهاز (الحاسوب المحمول) تحكي لشوق تفاصيل يومها.. حدثتها عن

مطبق الزبيدي الذي طهته، وعن زيارتها لمارتا والحوار الذي دار بينهن، واختتمت حديثها قائلة:

- لا أدري يا شوق كيف استطعت أن أصوغ عباراتي بتلك السلاسة وقوة المنطق! كنت مندهشة من نفسي! قطعاً.. لم يكن الأمر مهارة مني، ولكنه عون المولى الكريم لي.

ختاماً عزيزتي أرجو منك أن ترسلي إلي على وجه السرعة قرآناً مترجماً أنوي إهداءه لمارتا، وكذلك بعض الكتيبات عن الإسلام.

☆ ☆ ☆

obeikandl.com

بيتر

أعاد الجد سماعة الهاتف إلى مكانها، ثم التفت إلى زوجته التي كانت تعرض على نوف بعض الصور العائلية وقال:

- سيصل بيتر غداً مساءً. ثم أردف، وهو يحملق في نوف:

- قال إنه يتحرق شوقاً لرؤية نوف.

تساءلت نوف باسمة:

- من بيتر؟

ابتسمت الجدة بحنان وقالت:

- خالك!

لاحت الدهشة على وجه نوف وهتفت:

- خالي؟ ولي خال أيضاً؟

أردفت الجدة:

- كان صغيراً حين توفيت أمك، وهو الآن في الثلاثين ويعمل في شركة في نيويورك، ويزورنا كل بضعة أشهر، وعليَّ أن أجهز غرفته.

obeikandl.com

نهضت الجدة لتؤدي ما انتوته، في حين قالت نوف لجدها:

- سأوصل الطرد الذي وصلني من الكويت إلى مارتا، لن أغيب يا جدي.

لا حظت بعض السهوم على وجه الجد فتساءلت برقة:

- ما لك يا جدي؟

نظر إليها الجد حرجاً وقال بعد تردد:

- بيتر شاب طائش، وصريح جداً، وقد يضايقك بكلامه وتصرفاته.

ترددت نوف قليلاً ثم قالت باسمة:

- لا عليك يا جدي العزيز، لا تحمل هماً، سأتقبل الأمر.

- إن مزاحه من العيار الثقيل.

ربتت على كفه الضخمة وقالت:

- لا تقلق يا جدي، سأتقبل مزاحه.

حملت نوف الطرد إلى منزل مارتا، في حين لحق الجد بزوجته وهي تعد الغرفة لبيتر، وباح لها بما يقلقه:

- أخشى أن يضايق بيتر الفتاة!

قالت الجدة وهي تغير أغطية الفراش:

obeikandl.com

- لا تقلق عليها! تبدو واثقة من نفسها على ضآلة حجمها.

كانت الساعة قد اقتربت من الثامنة مساءً حين عاد الجد من المطار وبصحبته بيتر.. شاب أشقر طويل كثير الشبه بأمه، وإن كان في حجمه وطوله أقرب شبهاً بأبيه، وحين رأى نوف صاح:

- لم يخبراني أنك جميلة جداً!! لكن لا تتوقعي أن أعزف عن الأمريكيات وأغازلك.

ابتسمت نوف على استحياء، في حين هتفت الأم وهي تدعوهم إلى المائدة:

- هيا لنأكل.. لقد أعددت لك بعض أطباقك المفضلة.

تحلقوا حول المائدة، ومضى بيتر يثرثر ويمزح، فتضحك الجدة وتبتسم نوف، والجد يأكل بصمت حتى قال بيتر فجأة:

- لابد أنك تجدين الحياة في الكويت مضجرة جداً.. لست تستمتعين بحريتك، فأنت مضطرة للسكن مع أهلك طوال حياتك ولا يسمح لك باتخاذ عشيق! كما علمت من أمي أنك تخرجين بثياب سوداء مريعة تغطيك من رأسك حتى أخمص قدميك.

اعترضت الجدة منزعجة:

obeikandl.com

- لم أذكر كلمة (مريعة) يا بيتر.

احتج الجد:

- بيتر!

ابتسمت نوف وقالت بهدوء:

- لا عليك يا جدي.. إني قادرة على تقبل صراحته معي.

قهقه بيتر وهو يقذف في فمه قطعة من اللحم:

- أوه.. ستجدينني صريحاً أكثر من اللازم، وربما ندمت على ترحيبك بصراحتي!

سألت نوف بهدوء:

- أتحب أن أجيب عن سؤالك؟

- طبعاً.

- أولاً أنا أحب الكويت فهي وطني الغالي، وفيها أهلي وأقربائي وأصدقائي، ولا أجد الحياة فيها مضجرة بتاتاً، لقد حبانا الله تعالى بمجتمع مترابط متكافل، لو عشت فيه يا خالي العزيز لدهشت من قوة الروابط العائلية بين أفراده.

ابتسمت الجدة، وتنهد الجد، وعلق بيتر:

- بلا خمر، ولا علاقات عاطفية بين الجنسين، بتقاليد تكبل المرء من رأسه حتى أخمص قدميه.

احتفظت نوف بهدوئها وهي تقول:

- العادات والتقاليد جزء من كل مجتمع، وتقاليدنا تتوافق مع ديننا الذي هو أساساً جاء لإسعاد البشر لا لشقائهم، ولو كان في الخمر خير ما حرمها الإسلام، حتى النصرانية كانت تحرم الخمر قبل تحريف الإنجيل.

هتف بيتر محتجاً:

- لست أؤمن بالأديان.. إنها هراء.

قالت نوف:

- حتى لو كنت لا تؤمن بها، لا أظن أنه يخفى عليك مضار الخمر الصحية والاجتماعية.

- ليس لها مضار!

قالت الجدة:

- لا تكابر بيتر.. لا تنس عمك جون الذي مات بتليف الكبد بسبب إدمانه، ولا تنس جارنا ستيف الذي فصل من عمله بسبب إدمانه فهجرته زوجته، وقصصاً أخرى كثيرة.

قال بيتر مدافعاً:

- لكنه يمنحك شعوراً بالنشوة والدفء و...

قاطعته نوف برقة:

obeikandl.com

- والغياب عن الوعي والعقل! ترى لم تريدني أن أغيب عن وعيي وعقلي؟

- غياب عن الوعي مؤقت لكنه لذيذ.

- مؤقت في البداية ومدمر في النهاية! ما المتعة في أن يغيب المرء عن عقله، حتى ولو كان لمدة قصيرة، إن العقل نعمة من الله وهبها لنا فلم لا نحافظ عليها؟ والصحة أيضاً نعمة فلم لا نتمتع بها؟

احتج بيتر وهو يتمطى:

- لا تكون الحياة جميلة بلا خمر، وها أنا ذا أشرب الخمر منذ كنت في الثالثة عشرة وما زلت محتفظاً بكامل صحتي ولياقتي.

قالت نوف:

- ولا تدري عما ستكون عليه غداً! ثم إن القضية ليست قضية صحة فقط، فعندما يفقد المرء عقله بفعل السكر يكون أقرب إلى الحيوان منه إلى الآدمية!

ذات عام كنت مع أسرتي في لندن، وصادف أن كان الناس هناك يحتفلون برأس السنة الميلادية، وبينما كنا نسير في أحد الشوارع شاهدنا رجلاً قد غاب عن وعيه بفعل السكر وانطرح على أرضية الشارع، وقد بدا لي من هيئته وثيابه الغالية أنه من طبقة الموسرين، وكان من شدة سكره قد انطرح على أحد المقاعد في وضعية مخجلة، والبول يتسرب منه دون أن

يشعر، ولا أحد يستطيع الاقتراب منه بسبب رائحته النتنة!

ظل منظر ذلك الرجل المسكين في ذاكرتي لم أنسه قط، وكلما تذكرته تذكرت تلك الرائحة الكريهة، التي كانت تنبعث منه وشعرت بالغثيان، أعجب للمرء الذي يقبل على نفسه أن يكون عبداً للخمر!

ساد الغرفة جو من الصمت قطعه بيتر بضحكة مفتعلة:

- لم يحدث أن فقدت وعيي بمثل هذه الدرجة!

- وغيرك الكثير من لا يفقد وعيه، لكن تعاليم الدين تأتي بحسب عموم الناس، وربما عموم الناس لا تقوى على ما تقوى أنت عليه.

أراد بيتر أن ينتقل إلى جانب مختلف فتساءل ضاحكاً:

- وماذا عن الحب؟ لا أصدق أن فتاة في عمرك لا تتمنى أن تجرب الحب!

- أي حب تقصد؟ هناك أنواع مختلفة من الحب.. حب البنت لأبويها، وحب الزوجة لزوجها، وأنا أحببت أبي وإخوتي وجدتي، أحببت جدي مايكل وجدتي جين.

قهقه الجد في سرور بينما قال بيتر مغيظاً:

- هيا.. ما عن هذا سألتك؟

obeikandl.com

قالت نوف:

- وهناك الحب الأسمى والأعلى والأجل.. حب الله عز وجل، لكن مع الأسف ما أظنك عرفته، وبدوري لا أستطيع وصفه لك، من الصعب أن تشرح طعم التفاح لمن لم يتذوقه قط!

زم بيتر شفتيه وزعق:

- ولا عن هذا أيضاً.

أردفت نوف باسمة:

- أكل ذلك الحب الذي حدثتك عنه ليس حباً في نظرك!! الحب بنظرك ينحصر فقط في ذلك الاشتهاء بين الرجل والمرأة؟

خبط الجد المائدة بقبضته وهتف:

- نوف.. أنت رائعة فعلاً!

هزت الجدة رأسها وقالت:

- ألم أقل لك؟

اندفع بيتر يصيح في هياج مثل مقاتل شرس يوشك أن يخسر المعركة:

- هيا.. لا تتهربي.. لقد اعترفت أنك تحبين الصراحة.. لا تقولي أنك على درجة من العفة بحيث لا تفكرين بالرجل مطلقاً.

obeikandl.com

- أنا لم أقل هذا.. أنا مثل كل فتاة أتمنى أن يكون لي زوج وبيت وأطفال.. علاقتي بالرجل يجب أن تكون من خلال الزواج، وأرفض تماماً أن تكون خارجه، وإذا كنت ترى عاداتنا وتقاليدنا تكبل حياتنا وتعوقها، فنحن نراها ضوابط لحفظ مجتمعنا ولخيره، فالحرية التي تزيد على حدها تضر ولا تنفع.. الحرية بلا ضوابط تضر المجتمع ولا تنفعه.. عندنا مثل في الكويت يقول: «الشيء إذا زاد عن حده انقلب ضده».

صمتت نوف برهة ثم قالت:

- أظن أني قد أجبت عن سؤالك يا خالي.

قال بيتر ساخراً:

- عبثاً تحاولين إيهامي أن فتاة مثلك ليس لها عشيق! يستحيل أن أصدق ذلك! لا شك أنك تفعلين ذلك من دون علم والدك!.

ابتسمت نوف وقالت:

- وأيضاً لدينا مثل في الكويت يقول: «كل من يرى الناس بعين طبعه» أي يراهم كما يرى نفسه.

قهقه الجد من جديد، وراح بيتر ينفث دخان سيجارته بغيظ!

قبل أن تنام أرسلت تقول لشوق:

اذكري الله يا شوق وقولي ما شاء الله لا قوة

إلا بالله.. لا أدري من أين جئت بكل تلك القوة والثقة والطلاقة، وأنا أناقش خالي! حقاً ..﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧/٨]! آه، على ذكر الخال.. فاتني أن أقول لك إني اكتشفت أن لي خالاً أيضاً.. يبدو أن المفاجآت لن تنتهي!!

☆ ☆ ☆

obeikandl.com

حان الفراق

بعد سفر بيتر الذي لم تستغرق إقامته بينهم أكثر من ثلاثة أيام، اقترح الجد القيام بزيارة إلى الأماكن السياحية المجاورة، وقد استمتعت نوف بالرحلة كثيراً، وأخجلها كرم جديها معها، وعنايتهما الفائقة بها، ويوماً بعد يوم كانت تشعر أن الحواجز النفسية بينها وبينهما تذوب وتزول ليحل بدلاً منها مشاعر صادقة من الحب والمودة، وكانت تطلع شوق باستمرار على ذلك التطور، وأيضاً تطلع والدها كلما هاتفها فكان ذلك يزيد الأب اطمئناناً عليها.

كاد الشهر ينقضي، وأدهشها ذلك، فقد مرت الأيام سريعاً دون أن ينتابها ضجر أو ملل. وذات مساء رافقت جدها إلى السوق المركزي المجاور لشراء حاجيات طلبتها الجدة، كانت تثرثر على مسامعه بطرائف من أيام طفولتها، بينا أنصت الجد ساهياً وما كان يعلق على حديثها، وبعد مدة رابها صمته فتساءلت:

- ما بك ياجدي؟ أمريض أنت؟

- كلا.. إني بخير يا عزيزتي.

تساءلت من جديد:

- مالك إذن؟ أساءك حديثي؟

- لا تشغلي بالك يا عزيزتي.

سرعان ما فرغا من تبضعهما وقفلا عائدين، فالتزمت نوف الصمت حيرى من سكوت جدها، وفطن هو للأمر فقال باسماً:

- ألا تطربيني بالمزيد من أحاديثك الجميلة.

تنفست في ارتياح وقالت في إصرار:

- ليس قبل أن تخبرني عما بك؟ أمريض أنت أم منزعج من أمر ما؟! أرجوك جدي أخبرني!

توقف فجأة وشملها بنظرة حب وحنان ثم قال:

- لا أريدك أن تقلقي يا عزيزتي.. كل ما في الأمر أنني ذكرت سفرك القريب وعودتك إلى بلادك الأسبوع المقبل فاغتممت لذلك.. هذا كل ما في الأمر.. لقد.. لقد سعدنا بوجودك بيننا.

حارت نوف ولم تدر بم تجيب، فقد سرتها عبارة جدها وأحزنتها في آن واحد.

لاحظ الجد حيرتها فقال مازحاً:

- هيا.. دعك من تخاريف رجل عجوز.

obeikandl.com

ضغطت على كفه باسمة:

- أدرك شعورك تماماً يا جدي، وأنا أيضاً سأفتقدكما كثيراً، لكن.. لكن حتماً ستأتيان لزيارتي.. أليس كذلك؟ وسأعرفكما على جدتي وعلى زوجة أبي وإخوتي.. لقد أصبح لكما الآن أهل في الكويت.

تابعا السير والجد يردد:

- نعم.. نعم.. صحيح.

- بل يجب أن نحدد موعد زيارتكما للكويت من الآن، فما رأيك لو جئتما في الربيع، حيث يكون الجو معتدلاً.. عندي صديقة تدرس في معهد للغات، وقد أخبرتها المدرسة الأمريكية التي تقوم بتدريسها أنها لا تطيق شدة الحرارة في الكويت في فصل الصيف، ولذلك تجهز حقائبها فوراً مع بداية العطلة الصيفية للسفر إلى أمريكا! نعم.. لابد من حضوركما في الربيع، وسنسعد باستقبالكما هناك، وسيسر أبي لذلك، فهو الذي أصر على إحضاري إلى أمريكة فقط للالتقاء بكما.

قال الجد:

- وهذا ما يدهشني! لم يكن أبوك حريصاً على استمرار العلاقة بيننا وبينه بعد وفاة والدتك. سأناقش الأمر مع جدتك.

ساد الصمت بينهما وهما يقطعان ما تبقى من

obeikandl.com

طريق العودة. كان صمتاً ثقيلاً، آلمها حزن جدها وخجلت من أنانيتها، فقد كانت جذلة لقرب أوبتها إلى بلادها، وما خامرها ما سيعانيه جدّاها لفراقها.

عندما وصلا إلى البيت سارعت نوف لترتيب الحاجيات في البراد، في حين كانت الجدة تلوذ بفراشها، فسألها الجد: مالك؟

- أشعر ببعض التعب.. أظنني أحتاج لبعض الراحة.

تساءلت نوف وهي تجلس في طرف السرير:

- هل أجهز لك طعاماً يا جدتي، أو شاياً.. أو..

قاطعتها الجدة بحنان:

- لا يا عزيزتي، شكراً لك.. إنه تعب بسيط وسيزول في الصباح أنا واثقة من ذلك.. طابت ليلتك.

قبل أن تأوي إلى فراشها أرسلت إلى شوق:

مسكين جدي يا شوق؟ ولكن ماذا بمقدوري أن أفعل؟ حتماً ستنتهي الرحلة وأعود إلى الكويت، وقد أدركت مدى ما يعانيانه من وحدة، وبودي حقاً لو أقوم بعمل يدخل السرور إلى قلبيهما، فقد كانا في غاية اللطف والاهتمام بي! وكما لمست فإن علاقتهما بالأصحاب محدودة، وبيتر مقل جداً في زيارتهما، لكن حالهما على أي حال لن يكون أصعب من حال مارتا التي تعيش بمفردها.

سلامي وقبلاتي لك ولجميع الأهل والأصحاب، وأنتظر بفارغ الصبر عودتي بالسلامة في الأسبوع المقبل.

☆ ☆ ☆

obeikandl.com

obeikandl.com

طارئ

كانت نوف مستغرقة في النوم حين انتبهت على صوت أبواب تفتح وتغلق بقوة. غلب عليها النعاس وآثرت أن تتجاهل الأمر، لكن همهمة غامضة خارج غرفتها أقلقتها فنهضت تستطلع الأمر.

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بقليل. شاهدت باب الحمام مفتوحاً والجدة متكورة على نفسها فيه، وهي تئن بألم بالغ.

صاحت نوف في ذعر وهي تجثو على الأرض بقربها:

- ما الأمر يا جدتي؟

علا وجه الجدة ما تقاسيه من آلام، وهمست من بين آلامها:

- تزحلقت على الأرض.. أظن.. كسر في..

اندفع الجد مسرعاً وهو يهتف:

- هيا.. أحضرت السيارة.. نوف ساعديني في حملها وكوني حذرة.. أظنه كسراً في الحوض.

بصعوبة بالغة حملا الجدة إلى السيارة وأرقداها في المقعد الخلفي، ثم قالت نوف:

- سآتي معكما.

قال الجد:

- لا داعي.. ابقي في البيت.. عودي إلى فراشك.

قاطعته بإصرار:

- بل لابد من ذلك.. لن أغيب.. سأغير ثيابي حالاً.

طوال الطريق والجدة تئن وتتأوه، ونوف تدعو الله في سرها أن يلطف بها، وكان المشفى يبعد مسافة عشرين ميلاً قطعها الجد في ثلث ساعة تقريباً، وما إن وصلا حتى سارع الطبيب بإعطاء الجدة حقنة مسكنة للألم، وانتظر الجد ونوف خارج غرفة الفحص، وبعد انتظارٍ خالَه الجدُّ دهراً خرج الطبيب ليبلغهما أنه كسر في الحوض و:

- سيطول بقاء زوجك معنا يا سيد مالكوم.

هز الجد رأسه وقال بامتعاض:

- سأوصلك يا نوف إلى البيت ثم أعود إليها.

ابتسمت وهي تقول له:

- بل تعود أنت، فأنت متعب، وأبقى أنا معها.

لم تنفع احتجاجات الجد في دفعها لتغيير ما انتوته، وعاد الجد إلى البيت مرهقاً، وسرعان ما غرق في نوم عميق.

كان على الجدة تقبل الوضع الجديد حين استيقظت في الصباح، فقد كان الجزء السفلي من جسدها ملفوفاً بالأربطة، والجبيرة الصلبة تمنعها من الحركة.

تأملت النائمة بجوارها على السرير الإضافي وابتسمت. دخلت الممرضة لتلقي تحية الصباح وتسألها:

- كيف حالك اليوم سيدة مالكوم؟

زوت الجدة ما بين حاجبيها وقالت:

- وكيف يكون حالي مع هذه الجبيرة والضمادات برأيك؟

- إنه كسر شديد في الحوض، لكنك ستتعافين.

- أرجو ذلك.

استيقظت نوف وألقت عليها تحية الصباح، فقالت الجدة بامتنان:

- كان يجدر بك العودة إلى البيت، ونيل قسط من النوم فأنا بخير.

- وأتركك جدتي؟

- وماذا في ذلك؟ هم سيعتنون بي.

أشارت نوف إلى صينية طعام الإفطار بجوار سرير الجدة وقالت باسمة:

- حان وقت الإفطار.

قالت الجدة:

- سنفطر معاً.

قدم الجد ومعه بعض الأمتعة التي طلبتها نوف لها ولجدتها حين هاتفته في الصباح، عانق زوجه وسألها:

- كيف حالك اليوم يا عزيزتي؟

- أنا بخير يا عزيزي، ولكن مما يؤسف له أن بقائي في المشفى سيطول، وهذا يزعجني جداً.

داعبها الجد:

- لا تكوني مثل العجائز الشديدات التبرم.. اصبري وكوني متفائلة.

قبل مغادرة الجد قال لنوف:

- متى أمر في المساء لأصحبك إلى البيت؟

تساءلت نوف باسمة:

- ولم تريد مني أن أعود إلى البيت؟

قالت الجدة محتجة:

- لا تقولي إنك ستقضين في المشفى ليلة أخرى، لن أرضى بذلك.. محال.. أنا نفسي لم أنم جيداً

obeikandl.com

بسبب الإزعاج في هذا المكان.. هيا عودي مع جدك لتنامي في البيت.

قالت نوف:

- آسفة جدتي فلن أعمل بنصيحتك وسأبقى معك.

من جديد لم تنفع احتجاجات الجدين في ثنيها عن عزمها. وفي اليوم نفسه أدركت الجدة أنها ممتنة لحفيدتها لبقائها بجوارها، ففي مثل حالها كان الأمر يتطلب وجود شخص بجوارها باستمرار، فقد كانت عاجزة عن القيام بأبسط الأمور بمفردها، وما كان فريق التمريض ليوفر لها هذه الخدمة التي تحتاج إليها من هي في مثل حالها باستمرار. وأدركت نوف مدى الحاجة إلى وجودها بقرب جدتها، فعزمت في نفسها أمراً،لم تتردد في نقله لوالدها حين هاتفها بعد أيام:

- سأصل يوم الاثنين وسنغادر للكويت بإذن الله يوم الأربعاء.

ترددت نوف قبل أن تجيبه:

- لقد سقطت جدتي في الحمام، وكسر حوضها وأنا الآن معها في المشفى، قال الطبيب إنها ستضطر للبقاء هنا شهراً بأكمله.

- يا للمسكينة! متى حدث ذلك؟

- منذ ثلاثة أيام، وقد نويت أمراً يا أبي.

- ما هو؟

- لا أظنني قادرة على العودة معك، لا ينبغي أن أتركها وهي في هذه الحال!

جزع الأب وصاح:

- ما هذا الذي تقولينه؟ كيف تبقين وإلى متى؟ لا شك أنهم في المشفى يقدمون لها عناية فائقة.

- أرجوك يا أبي اسمعني، إنها في أشد الحاجة إلي، لا أستطيع تركها.

- لا أستطيع تركك يا نوف، سنناقش الأمر عند قدومي.

سعدت الجدة بزيارة الأب الذي حمل لها باقة من الورد، وما إن استقر به المقام حتى قالت:

- اسمع يا يوسف، إياك أن تظن أنني طلبت منها البقاء معي، بل هي التي تصر على ذلك و..

قاطعها الأب وهو ينظر إلى نوف:

- لابد من عودتها، فهذا آخر فصل دراسي لها في الجامعة، وستتخرج قريباً.

قال الجد مؤكداً:

- نعم.. نعم.. والدك محق يا نوف.. لن نرضى أنا وجدتك أن يتأخر تخرجك بسببنا.. لابد من عودتك.

قالت نوف:

- أنتما لا تريدانني إذن!

قال الجد:

- أتقولين هذا بعدما دار بيننا من حديث في تلك الليلة التي سقطت فيها جدتك؟ بيد أننا لسنا من الأنانية بحيث نرضى بتأخير تخرجك، لقد تحسن حال جدتك الآن، وأعدك أنني سأعتني بها جيداً.

قالت الجدة:

- جدك محق يا عزيزتي. عليك العودة.. اسمعا، ما رأيكما لو ذهبتما لتناول طعامكما في مطعم المشفى في الطابق الأرضي وناقشتما الموضوع.

قال الأب وهو ينهض:

- هو ذاك.. تعالي يا نوف.

☆ ☆ ☆

ما إن استوى الأب على كرسيه في المطعم، وأدلى بطلبه للنادلة حتى قال لابنته:

- ما الذي جرى لك يا نوف؟ في البداية ما كنت تريدين البقاء، والآن لا تريدين العودة؟

قالت بهدوء:

- بل ما زلت أريد العودة، وكنت أترقب مرور الأيام

بفارغ الصبر، ولكن بعد أن رأيت من حال جدتي ما رأيت لا يهون عليَّ تركها.

- ولكنهم في المشفى سيعتنون بها.

أطرقت قليلاً ثم قالت:

- إنها تحتاج إلي يا أبي صدقني، من الصعب على الممرضة أن تترك عملها وتبقى بجوارها طيلة الوقت، ومن الصعب على جدي أن يقوم بذلك أيضاً.

- طيب ولو لم تأت إلى أمريكة، ودخلت جدتك المشفى كيف كان سيكون الأمر؟

- لكنني جئت، وهي الآن بحاجة إلي.. لسانها يطلب مني العودة، وقلبها يتمنى بقائي. وما الضير أن أؤجل تخرجي فصلاً. فأبقى هنا شهراً آخر.. أرجوك يا أبي. أعنّي على برهما!

أطرق الأب صامتاً متحيراً، فقالت نوف:

- مالك يا أبي؟ أتراك تخشى أنني أحببت البقاء هنا، أبداً والله.. كل ما في الأمر أنه لا يهون عليَّ تركهما وهما في هذه الحال.. انظر إلى الجانب النفسي يا أبي.. إن بقائي يعني لهما الكثير.

صمت الأب من جديد ثم قال:

- حسناً.. سأعود بعد شهر لأصطحبك.

☆ ☆ ☆

obeikandl.com

غادر الأب إلى الكويت، وبقيت نوف بجوار جدتها تعتني بها وتقوم على خدمتها، قالت الممرضة يوماً للجدة:

- أنت محظوظة بابنتك هذه، إنها شديدة الاهتمام بك.

قالت الجدة وهي ترنو إلى نوف بحب وامتنان:

- فعلاً.. أنا محظوظة بحفيدتي وفخورة بها.

ارتسمت علامات الدهشة على وجه الممرضة:

- حفيدتك! مدهش أن يجد المرء في زماننا هذا أحفاداً يهتمون به بمثل هذه الصورة.

غادرت الممرضة والتفتت الجدة إلى نوف وقد ترقرق الدمع في مآقيها:

- لا أدري يا عزيزتي ماذا كنت سأصنع من دونك، إنني ممتنة لك يا نوف، ملكت قلبي بمعروفك، وأنا اليوم أحبك من كل قلبي.

عانقتها نوف في حب وهي تقول:

- وأنا أحبك يا جدتي.

دخل الجد في تلك اللحظة، وما إن استوعب الموقف العاطفي حتى هتف:

- أشركاني في هذا العناق الحميم بالله عليكما.

قالت الجدة وهي تمسح دمعها:

- تعال يا مايكل، واسمع كيف تحسدني الممرضات على حفيدتي الرائعة هذه.

قال الجد وهو يقبلها:

- وكيف لا يحسدنك؟! إنها رائعة بالفعل!

☆ ☆ ☆

obeikandl.com

رمضان

غادرت الجدة المشفى بعد عشرين يوماً، واحتفلت نوف بخروجها بأن أعدت عشاءً حافلاً دعت إليه مارتا.

أشارت نوف إلى الأوعية أمامها وقالت: صنعت هذه الأصناف والتي لا تطهى عادة إلا في رمضان. أشارت إلى جفنة طبخ فيها القمح مع اللحم وذر فوقها الدارسين المخلوط بالسكر الناعم وقالت: هذه هي الهريسة، وهي طبق شعبي يطهى في رمضان عادة. وهذا القمح المطهو مع الطماطم واللحم هو الجريش. أما قطع الخبز التي سقيت بالمرق فنسميه التشريبة. كلها أطباق رمضانية وقد صنعتها لأن رمضان سيحل بعد أيام قليلة. تساءلت مارتا، وهي تتذوق التشريبة:

- وما هو رمضان؟

- إنه شهر الصيام، نحن نصوم فيه من شروق الشمس إلى غروبها، لا نأكل ولا نشرب مطلقاً خلال النهار.

تساءل الجد:

obeikandl.com

- أليس الأمر صعباً؟

هزت نوف رأسها نافية:

- مطلقاً، هي النفس ما عودتها تتعود، خصوصاً لمن اعتاد الصيام منذ الصغر، لقد بدأت الصيام وأنا في السابعة من عمري، وما كنت لأسامح أبي حين لا يوقظني للسحور بحجة أنني مازلت صغيرة، ظن أني سأشعر بالتعب لكنني تحديته وصمت رمضان كله.

تساءلت مارتا:

- ما هو السحور؟

- نحن نستيقظ قبل شروق الشمس بمدة لنأكل ونشرب، ثم ننوي الصيام. والسحور سنة مؤكدة عن رسولنا صلى الله عليه وآله وسلم، وقد حرصت جدتي ومن بعدها أبي على أن نتمسك بهذه السنة دوماً.

علقت مارتا:

- جميل وغريب.. تنامون ثم تستيقظون لتأكلوا وتشربوا.

ضحكت نوف وهي تضع في طبق الجدة بعض الهريس:

- ليتك ترين حال بيتنا حينها؛ صراخ إخوتي وحديث أبي وضحك جدتي وكأننا في وَضَح النهار.

هزت مارتا رأسها:

- جميل وغريب. ومتى يكون رمضان؟

زمت نوف حاجبيها وهي تقول:

- اليوم هو السابع والعشرون من شعبان، يفترض أن يحل رمضان بعد يومين أو ثلاثة حسب رؤية الهلال.

أخذت نوف تشرح مسألة رؤية الهلال فقالت مارتا:

- معنى ذلك أنك ستصومين هنا بضعة أيام قبل وصول والدك.

- يبدو ذلك.

توقفت مارتا عن الطعام فجأة وقالت:

- وأنا سأصوم معك.

- ماذا؟

- أريد أن أجرب الصيام كيف يكون؟

دهش الجد وقال:

- أمرك عجيب يا مارتا!

- بل العجيب حفيدتك الرائعة هذه!

عندما علمت نوف بحلول رمضان أبلغت مارتا، وصامتا معاً، كانت تجلس معها في بيتها خلال النهار لتجيب عن أسئلتها التي لا تنقطع حول العبادات في الإسلام. وجاءت الجدة متوكئة على عكازتها قبل الغروب لتتناول معهما طعام الإفطار بحسب دعوة تلقتها من مارتا في ذلك الصباح.

obeikandl.com

ناولت نوف مارتا حبات من التمر وقالت:

- من السنة أن نفطر على التمر.

تساءلت مارتا:

- لماذا؟

- من الأفضل صحياً للصائم أن يدخل جوفه أول ما يدخل مادة سكرية، فهي أسهل امتصاصاً.

تساءلت مارتا:

- فإن لم يجد تمراً؟

- الماء.

- جميل.

تساءلت الجدة باهتمام:

- كيف وجدت الصيام يا مارتا؟

أسندت مارتا ظهرها للكرسي وقالت بجدية:

- حقيقة لم أجد الأمر صعباً جداً.. نعم كان صعباً في البداية ثم اعتدت الأمر. لقد انقضى النهار سريعاً.

ابتسمت نوف وهي تربت على كفها:

- كلي.

☆ ☆ ☆

obeikandl.com

صامت مارتا مع نوف أربعة أيام على التوالي، كانتا تقضيان الوقت في التسوق، أو بقراءة بعض الكتب في بيت مارتا، وقبل المغرب بقليل تحضر مارتا إلى بيت نوف لتسمعها وهي تتلو القرآن الكريم، فتنصت بهدوء حتى تنتهي نوف فتقول بعدها:

- جميل.. ينتابني شعور عجيب حين أسمعك تقرئين، وإن كان يصعب عليَّ تفسير ذلك.

احترم الجد والجدة نوف، فلم يتناولا الطعام أمامها بتاتاً خلال صيامها؛ إذ كانا يؤجلان الغداء إلى وقت الإفطار، رغم اعتراض نوف على ذلك، لكن الجدة مازحتها قائلة:

- دعيني أفعل مثلك لعلي أنقص بضعة كيلوجرامات وأتخلص من بعض الشحم!

وصل والد نوف في موعده، وذهبت الأسرة كلها لاستقباله. في الطريق إلى البيت قال الجد:

- هل تعلم يا يوسف، كلنا صرنا نصوم مع نوف! وهل تعلم أيضاً، كنت أستطيع أن أطلب منك ألا تتكبد عناء السفر، ونحن نوصلها إليك، فنيويورك لا تبعد عنا إلا ساعة بالطائرة، ولكن الحقيقة أننا أردنا بقاءها عندنا أطول مدة ممكنة.

ابتسم الأب وقال:

- لا عليك.. أنا أيضاً كنت مضطراً إلى العودة لارتباطي مع صاحب لي هنا.

قالت الجدة:

- وهذا من حسن حظنا.

☆ ☆ ☆

obeikandl.com

ولادة

كانت نوف منهمكة في حزم أمتعتها ذلك المساء الذي جاءت فيه مارتا لوداعها وقد حملت بيدها هدية لفتها بورق ملون. لم تدلف إلى غرفة نوف بل قبعت في البهو وهديتها في حضنها تنصت لحديث دائر بين الجد ووالد نوف، في الوقت الذي كانت فيه الجدة رائحة غادية بين المطبخ وغرفة نوف تحمل للحفيدة غرضاً ما.

لاحظ الجد صمت مارتا فسألها:

- ما الذي تحملينه يا مارتا؟

- هدية.

مازحها قائلاً:

- لمن؟ لي؟

قالت في شرود:

- بل لنوف.

- هل أناديها لك؟

نظرت إليه ساهمة:

- أرجوك.. افعل.

جلست نوف بجوار مارتا وأخذت تنزع الورق الملون الذي لفت به الهدية، وسرعان ما أخرجت قطعة من الخشب المحفور بنقوش بديعة وقد كتب في أسفله العبارة التالية:

"النجوم الأشد إنارة هم أولئك الأشخاص الذين يضيئون وينيرون حياة الآخرين".

ابتسمت نوف في خجل وهي تقرأ العبارة، ثم طوقت مارتا بذراعيها وقبلتها، وهمست:

- لن أنساك يا مارتا.. لن أنساك!

ترقرقت دمعة في مقلتي مارتا وهمست بصوت مبحوح:

- بل أنا التي لن أنساك يا عزيزتي.

أجهشت الجدة بالبكاء، فجزع الجد:

- يا إلهي، هل ستجعلين آخر ليلة ليلة فرح أو ليلة مأتم!

ابتسم والد نوف وقال:

- يبدو أن العلاقة قد قويت بين مارتا ونوف! ترى ما سر هذا التعلق؟

openkanal.com

أجابه الجد ضاحكاً:

- هل تصدق أن مارتا صامت جميع الأيام مع نوف.

بدت الدهشة على ملامح الأب:

- معقول؟

ابتسمت له نوف:

- نعم يا أبي.

- ما شاء الله عليها.

مسحت مارتا دموعها وقالت:

- وجئت اليوم قبل رحيلكم أطلب منكم.. صمتت قليلاً ثم أردفت وهي تركز بصرها على نوف:

- أن تعلمني كيف أدخل دينكم!

ساد سكون مفاجئ. ارتسمت الدهشة على وجه الجد وزوجه، وشهقت نوف، في حين تساءل الأب:

- أجادة أنت؟

- كل الجد.

- هل تسنى لك أن تعرفي الإسلام جيداً؟

ربتت مارتا على ركبة نوف وقالت:

- اطمئن.. لقد شرحت لي ابنتك كل شيء.

obeikandl.com

نظر الأب إلى ابنته دهشاً:

- هل حقاً فعلت يا نوف؟ متى؟

انهمرت الدموع من عيني نوف، فتولى الجد الإجابة عن سؤال الأب:

- كانتا تتدارسان كل يوم تقريباً الكتب التي أحضرتها نوف.

- أي كتب؟

تساءل الأب من جديد والذهول لا يفارقه:

- من أين جئت بالكتب يا نوف؟

- أرسلتها لي شوق من الكويت.

- عجيب!

قالت مارتا وهي تضغط على كف نوف:

- بل العجيب أمر ابنتك هذه.. لقد فتحت لي عالماً رائعاً من الجمال والمحبة والسلام.

التفتت مارتا إلى الأب وقالت من بين دموعها:

- أتعلم لم جاءت ابنتك إلى أمريكة يا سيد يوسف، بل هل تعلم لم اتصل مايكل وجين بك وطلبا زيارتها.. لقد جاءت من أجلي أنا.. أرسلها الله لي.. لتغير لي دربي.. لترشدني إلى الدين الحق، فهذا ما كنت أبحث عنه. ظللت سنوات وأنا في حيرة من أمري، منذ

obeikandl.com

صغري وأنا ألتزم الذهاب إلى الكنيسة وأقرأ في الإنجيل، ولكني لم أجد في النصرانية بغيتي، فانقطعت عن الذهاب إلى الكنيسة في السنوات الأخيرة. كنت موقنة أن هناك خالقاً للكون لكن كيف السبيل لمعرفته حق المعرفة؟ هذا هو السؤال الذي ظل يتردد في نفسي يؤرقني ويعذبني.

لقد أصبحت علاقتي بدين النصرانية محل تساؤل[١]، وتزايدت شكوكي سواء في العقيدة أو الممارسة، كليهما.

وكان من أسباب هذه الشكوك تلك «التعديلات» التي توالت على الطقوس والشعائر الكنسية عقب المجمع الفاتيكاني الثاني الذي امتد بين عامي ١٩٦٢م و١٩٦٥م.

لقد ترك مؤتمر الفاتيكان هذا - وما تلاه من «تعديلات» - انطباعاً بأن الكنيسة لا تلتزم معايير ثابتة، فقد كان رجال الكنيسة يتحدثون فيما بينهم عن «المرونة»، وعن «ضرورة ملاءمة الطقوس لاحتياجات العصر» من أجل «الإحياء الديني» المنشود، في الوقت الذي بدوا فيه لشعب الكنيسة وكأنهم يتحسسون طريقهم في متاهة مظلمة على غير هدى!

إن الله لا يتغير، كما أن احتياجات روح الإنسان

(١) بتصرف من كتاب "لهذا أسلمت" للشيخ الأمريكي نوح كيلر.

الأساسية لا تختلف، فضلاً عن أن الوحي السماوي المباشر قد انقطع منذ زمان طويل، ومع ذلك، كانت هذه «التعديلات» تتلاحق - أسبوعاً بعد أسبوع، وعاماً بعد عام - من غير انقطاع!

وبالإضافة إلى هذه التحولات التي كانت تمس الأصول الفكرية للعقيدة: بالحذف حيناً، والتعديل أحياناً أخرى، كان هناك التحول من اللغة اللاتينية إلى الإنجليزية، وأخيراً الاستعانة بالجيتار وغيره من الآلات الموسيقية، والموسيقى الشعبية (الفلكلورية) في أداء الطقوس الدينية!

أما السبب الثاني وراء تزعزع علاقتي بالكنيسة فيرجع إلى عدد من المشكلات في العقيدة، وأعقدها مشكلة التثليث، التي لم يفلح أي إنسان في العالم عبر العصور - سواء كان من رجال الدين أم من غيرهم - في شرحها بطريقة منطقية مقنعة وقابلة للاستيعاب. لقد استقرت هذه العقيدة في أذهان عامة المسيحيين باعتبارها نوعاً من (اللجنة الإلهية)! المشتركة بين: «الرب الأب» الذي يحكم العالم من السماء، و«الرب الابن» يسوع المسيح منقذ البشر على الأرض، و«الرب روح القدس» الذي كان يرمز إليه دائماً - في الأيقونات والتصاوير المسيحية - بحمامة بيضاء وديعة، وكان دوره دونهما بكثير.

أما المسمار الأخير في نعش اعتقادي المسيحي،

فقد كان تجارة الكنيسة في (أسهمِ وسَنَداتِ) الآخرة، فيما عُرف بـ«صكوك الغفران»، التي يلزمك شراؤها إذا أردت التخفف من حمل ذنوبك وآثامك! وبقدر ما تدفع لرجال الكنيسة يخفف عنك من عقابك الذي ينتظرك - لا محالة - في «الْمَطْهَر»! الأمر الذي بدا كذباً مكشوفاً لمارتن لوثر (Martin Luther) في أوائل عهد الإصلاح البروتستانتي للكنيسة.

وأذكر أنه كانت تتملَّكني رَغبةٌ ملحّةٌ في العثور على نصٍّ إلهيٍّ منزَّلٍ يهدي للتي هي أحسن. وفي أحد أعياد (الكريسماس) أُهديَتْ إليَّ نسخةٌ فاخرة من «الكتاب المقدَّس» بعَهْدَيْه، ولمَّا حاولتُ قراءته وجدته حافلاً بالاستطرادات الكثيرة التي لا يكاد يجمعها سياق منطقي واحد، حتى بات من العسير علي جداً التفكير في محاولة استنباط قواعد منضبطة منه يمكن للإنسان تأسيس حياته وفقاً لها.

وبمرور الوقت، وبمزيد من الخبرة.. عرفت كيف يتعامل المسيحيون مع هذه المعضلة على أرض الواقع. فطائفة البروتستانت تبتدع نظريات مذهبية خاصة بها، فتؤكد أهمية ما يؤيد تلك النظريات من نصوص، وتقلل من شأن النصوص الأخرى.

والأمر نفسه تفعله طائفة الكاثوليك؛ إذ تقلل من أهمية جميع النصوص عدا تلك النتف التي تذكر في طقوسهم.

ومن ذلك كله اتضح لي بصورة جلية أن في هذا «الكتاب المقدس» شيئاً ما - نقصاً أو زيادة أو تحريفاً - يمنع من إمكانية قراءته وحدةً متكاملة.

وعندما التحقت بجامعة غانزاغا (Gonzaga) الكاثوليكية بولاية واشنطن (في خريف ١٩٧٢) اكتشفت أن مصداقية هذا «الكتاب المقدس» - لا سيما «العهد الجديد» منه - تعرضت لتشكيك كبير من قبل كثير من الباحثين المسيحيين أنفسهم، نتيجة للدراسات الحديثة في تأويل النصوص وإعادة قراءتها.

عندما أعطتني نوف النسخة المترجمة للقرآن الكريم انكببت على قراءتها أياماً عدة، ومع أن ترجمة القرآن لا تستطيع، مهما بلغت جودتها نقل روحه الخاصة التي يستشعرها قارئه بالعربية؛ إلا أن تفوق القرآن في ترجمته هذه قد ظهر - في كل سطر من سطوره - على «الكتاب المقدس» بعهديه، وشعرت كما لو أن حقيقة الوحي الإلهي- الذي سمعت عنه بشكل باهت طوال حياتي - قد مثلت نصب عيني.. لقد رأيت في هذا الكتاب - بأسلوبه الرفيع، وقوته، وحجيته التي لا تقبل الرد، وطريقته المدهشة في استنباط حجج القلب الملحد والإجابة عنها قبل طرحها - رأيت في ذلك كله بياناً واضحاً للإله إلهاً، وللإنسان إنساناً؛ إذ إن الوحي بوحدانية الإله الذي يثير الخشية والإجلال له هو نفسه الوحي المتنزل بالعدالة الاجتماعية والاقتصادية بين البشر.

بعد قراءتي للقرآن سألت نفسي: لماذا لا أصبح مسلمة؟ فوجدت أن الله قد خلق في قلبي عزماً على الانتماء إلى هذا الدين الذي لمست مدى انتمائه لقلوب أتباعه من بسطاء الناس إلى ألمعهم فكراً وفهماً على حد سواء. ليس الأمر مجرد اقتناع عقلي، إنما هي رحمة الله وهدايته التي تداركتني في آخر عمري.

حين كانت نوف تجلس لتحدثني كنت أسمع هاتفاً يقول لي: لقد جاءت هذه الفتاة من بلادها من أجلك.. من أجلك أنت.. لتخرجك من حيرتك ولترشدك إلى معرفة خالقك.

صمتت مارتا، وران ذلك السكون المهيب على الغرفة من جديد، وراح الأب ينقل نظراته الحيرى بين ابنته وبين مارتا:

- لا أصدق ما أسمع! حقاً فعلت كل ذلك يا نوف؟

همست مارتا وهي تنظر إلى نوف بامتنان وحب:

- لقد ولدت على يديها من جديد.

انسابت دموع نوف من جديد، وضغطت على شفتيها وهي تطرق إلى الأرض بخجل وتقول بتواضع:

-لم أفعل شيئاً.. لقد شاء الله تعالى لها الخير.

نقلت الجدة نظراتها الدهشة بين مارتا وحفيدتها وقالت:

- يبدو أني سأشعر بالغيرة منكما.. يبدو أن جلسات حميمة وأحاديث عميقة قد دارت بينكما.. لقد أفضت بها على مارتا يا نوف ونسيت جدتك.

اعترضت نوف:

- أبداً يا جدتي لم أنسك.. مارتا كانت تسأل وكنت أجيب.

ابتسمت الجدة وهي تضم حفيدتها بحنان:

- لا عليك، كنت أمزح معك، أعلم بفضول مارتا للمعرفة، وصدقيني إني سعيدة لأجلها مادام في ذلك هناؤها وسعادتها.

هز الجد رأسه موافقاً:

- نعم.. من حق المرء أن يعتنق الدين الذي يقتنع به ويجد فيه بغيته.

تساءلت مارتا:

- والآن؟ ماذا أفعل يا سيد يوسف وماذا أقول؟

ابتسم الأب وهو ينظر إلى ابنته بغمز:

- لست أنا من سيجيبك يا مارتا بل هي نوف.. هي التي بدأت معك، وهي التي ستفعل هذه الخطوة الحاسمة معك الآن.. أنا سأكتفي بموقف المتفرج والمعجب بكما أنتما الاثنتين.

التفتت مارتا إلى نوف:

obeikandl.com

- وأنا بانتظار ما ستقوله نوف؟

تساءلت نوف:

- هل اغتسلت يا مارتا؟

- نعم.. قد فعلت في بيتي.

- تعالي إذن.

أوقفتها في منتصف الغرفة وطلبت منها رفع سبابتها اليمنى ثم قالت:

- كرري بعدي:

"أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، وأبرأ من كل دين يخالف دين الإسلام"

نطقت نوف عبارتها بحنان وتؤدة، وراحت مارتا تكرر خلفها باهتمام.

راقب الأب المشهد بتأثر بالغ، وكان الجد وزوجه يتابعان باهتمام واستغراب.

عندما انتهت مارتا من نطق الشهادتين هتفت نوف وهي تعانقها:

- الله أكبر.. أنت الآن مسلمة يا مارتا أسأل الله لك الثبات..

ابتسمت مارتا وهي تضمها إليها:

- شكراً لك يا نوف.. شكراً لك يا نجمتي

المضيئة. شاء الله أن أعرفك في شيخوختي لتنيري لي ما بقي من عمري.

صاح الجد:

- كان يجب أن نستعد لهذه المناسبة الخاصة بعشاء مميز.

هزت الجدة رأسها موافقة:

- نعم.. نعم.

قال الأب:

- إذن اسمحوا لي أن أدعوكم إلى العشاء احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة.

اعترضت نوف:

- ولكن لم أنته من حزم جميع الأمتعة.

قال الأب:

- لا عليك.. سأساعدك عند عودتنا.. هيا بنا.

☆ ☆ ☆

obeikandl.com

وداع

في المطار احتضنت نوف جدتها وهي تتمتم:

- سأنتظر زيارة منكما إلى الكويت قريباً.

قالت الجدة من بين دموعها:

- كم أتمنى ذلك يا نوف، القرار بيد جدك.. أقنعيه!

هتف الجد وهو يحضن حفيدته:

- وهل أملك أن أتأخر، لقد تعلقنا بك يا عزيزتي.. سنحاول زيارتكم قريباً.

قال الأب وهو يصافح الجد:

- وتذكرا أن بيتي مفتوح لكما دائماً.

- شكراً.. شكراً.. إنني أقدر كرمك.

التفتت نوف إلى مارتا الصامتة بجوارهم:

- وأنت يا مارتا ستأتين معهما؟ أليس كذلك؟ كم ستسعدني زيارتك.. قولي نعم.. أرجوك.

لاحت أمارات الارتباك على وجه مارتا وهي تتمتم وتتطلع حيرى إلى كل من الجد والجدة:

obeikandl.com

- لا أدري.. لا أدري.

لفت الجدة ذراعها حول مارتا وهتفت:

- بالطبع ستأتي معنا. ستأتين يا مارتا.

ظلت مارتا تردد وهي ذاهلة:

- لست أدري.. لست أدري.

عانقتها نوف من جديد:

- سنظل على تواصل دائم، ثقي بذلك.

هزت مارتا رأسها ودموعها تنساب:

- أرجوك.. افعلي.. لا تنسي مارتا العجوز يانجمتي.

ضغطت نوف بكفها على كف مارتا وقبلتها ثم قبلت الجدة، ثم تنحنح الأب:

- هيا يا نوف هذا هو النداء الأخير.

سارا في طريقهما نحو البوابة والتفتت نوف تشمل الثلاثة الذين أحاطوها بكل حب ورعاية بنظرة حب وامتنان. رفعت يدها مودعة، فرفع الثلاثة أذرعهم يلوحون لها، واختلطت أصواتهم بأصوات المسافرين، وعاد الأب يلح عليها من جديد أن تسرع.. فأسرعت تلحق به، وغابت عن أزواج العيون الثلاثة التي كانت تراقبها.

☆ ☆ ☆

obeikandl.com

الخاتمة

لاشك أن القارئ يود أن يعرف ماذا حل بأبطال روايتنا بعد ذلك، فنقول إن مارتا لم تستطع الوفاء بوعدها لنوف بزيارتها، إذ توفاها الله عز وجل بعد أشهر قليلة، وقام الجد والجدة بالزيارة من دونها؛ وصارت الزيارات تتكرر بينهم، نوف تزورهما في الصيف، وهما يزورانها في الربيع، حتى كانت وفاة الجد بعد ثلاث سنوات، وكانت نوف قد تزوجت قبل وفاته بأشهر قليلة، فما كان منها إلا أن دعت الجدة للإقامة معها في بيت زوجها، وقبلت الجدة الدعوة فكانت تقيم معها طوال العام وتغادر لزيارة بلدها في أشهر الصيف، وظل الأب يوسف يكرر لزوج نوف بين حين وآخر:

- إلى الآن لا أصدق كل ما فعلته زوجتك!! فترد عليه نوف ضاحكة:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إذا أراد الله أمراً يا أبي هيأ له السبب.

☆ ☆ ☆

آفاق معرفة متجددة

١ - أسست عام ١٩٥٧ (١٣٧٦هـ)

٢ - رسالتها :

العمل في مجال الإبداع الفكري والثقافي؛ من خلال طباعة الكتب، والأقراص المغنطة، والوسائط المتعددة وأية أوعية أخرى للكلمة، ونشرها وتوزيعها، وإقامة الندوات والحوارات وورش العمل، بغية تحقيق ربح تجاري مجزٍ يعينها على تحقيق رسالتها ورؤاها الثقافية.

شباب لعصر المعرفة

2010=1431

٣ - رؤيتها :

- تزويد المجتمع بفكر يضيء له طريق مستقبل أفضل.
- كسر احتكارات المعرفة، وترسيخ ثقافة الحوار وضرورات التعدد.
- تغذية شعلة الفكر بوقود التجديد المستمر.
- مد الجسور المباشرة مع القارئ لتحقيق التفاعل الثقافي في المجتمع.
- إطلاق طاقات الطفولة، سبيل الارتقاء، واطراد التقدم الإنساني.
- الاستعانة بنخبة من المفكرين، إضافة إلى أجهزتها الخاصة للتحرير والأبحاث والترجمة.
- إعداد خطط النشر، والإعلان عنها: فصلياً وسنوياً ولآماد أطول.

٤ - خدماتها :

- **بنك القارئ النهم (الأول من نوعه في الوطن العربي) .**
- **تمنح جائزة سنوية للرواية ، وتكرم مؤلفيها وقراءها .**
- **ريادة في مجال النشر الألكتروني :**

– أول موقع متجدد بالعربية لناشر عربي على الانترنت: www.fikr.com

– موقع (فرات) لتجارة الكتب والبرامج الألكترونية : www.furat.com

– موقع تفاعلي رائد للأطفال (عالم زمزم) : www.zamzamworld.com

- **إشراف مباشر على موقعي:**

– الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي : www.bouti.com

– الدكتور وهبة الزحيلي: www.zuhayli.com

٥ - منشوراتها : تجاوزت مطلع عام ٢٠١٠م(٢٢٠٠) عنواناً، تغطي معظم فروع المعرفة .

٦ - جوائزها : حازت على جائزة أفضل ناشر عربي للعام ٢٠٠٢ ، من الهيئة المصرية العامة للكتاب.

نالت أربع جوائز من مؤسسة التقدم العلمي في الكويت ، عن كتبها :

– الجراحة التنظيرية ؛ مينيروـج وآخرين ، ٢٠٠٠م

– هروبي إلى الحرية ؛ علي عزت بيغوفتش ٢٠٠٢م

– موجز تاريخ الكون ؛ د. هـاني رزق ٢٠٠٣م

– الجينوم البشري ؛ د. هـاني رزق ٢٠٠٨م

للمزيد من المعلومات زوروا موقعنا على الانترنت: www.fikr.com

obeikandi.com